علم الاجتماع

بين الفينومينولوجية والتجريبية

الدكتور عبدالجليل الطاهر

« ان ما يسميه « هوسرل » فينومينولوجيا أدعوه ميتافيزيقيا • »

ـ وايتهيد ـ

١ ـ توطئـــة :

بالرغم من أن علم الاجتماع الحديث يحاول أن يرتفـــع الى مستوى العلوم الطبيعية ، وأن يتبع مناهج البحث التى تطبقها العلوم الطبيعيـة ، وأن يقطع كل صلة تربطه بالعلوم الانسانية والفلسفة ، نجد اليوم الفينومينولوجيا تشغل مكانة مرموقة فى كـــل من فرنسا والمانيـا الغربيـــة • ظهـرت « الفينومينولوجيا » كرد فعل للتيارات الفلسفية التى سادت فى مناهج البحث الاجتماعى مثل « المادية التاريخيـة » و « الاجتماعيـــة الدوركهايميـــة » و « النسبية العلمية » وغيرها ، والتى حاولت الكشف عن القوانين التى تسيطر على تطور المجتمع ، وتوءثر فى حركته ، وتوجه مسيرته ، وتعين أهدافـه ، وتصمم أفكار الانسان وأراءه •

تعني « الفينومينولوجيا » البحث فى مضامين الفكر ، ومحتوياتـــه ، مستقلة ، ومنعزلة عن كل وجود اجتماعي • من هذا التعريف الموجز ندرك أنه لاتوجد أية صلة بين « الفينومينولوجيا » وعـلم الاجتمـاع • لان علـم الاجتماع يدرس الانتاج الفكرى ـ الآراء والافكار والتصورات ووجهـــات النظر ـ فى واقعه الاجتماعى التأريخى ، من أجل أن يتوصل الى القواعـد العامة أو « القوانين » التى تسيطر على تلك الوقائع فتوءثر فى الانتاج الفكرى • أى أن علم الاجتماع يهتمُ فى الوضعية الاجتماعية التى ينبثق منها الرأى وفى العلاقة القائمة بين الوضعية والرأى •

الا أن البعض من علمـــاء الاجتماع المحـــدثين مثل « غرفتش

"Gurvitceh" »[1] و « فيركاندت "Vierkandt" »[2] اللذين يعتبران من أنصار « علم الاجتماع الفينومينولوجى » يؤكد ان بأن «الفينومينولوجيا» ينبوع لا ينضب بالتصورات ، والافكار ، والآراء التى تضيف ثروة هائلة الى علم الاجتماع ، ويضربان أمثلة على ذلك نظرية « الفهم » Max Weber [3] التى جاء بها العالم الاجتماعى « ماكس فيبر "Verstehen" » ، و « نظرية دلتاي»[4] و « نظرية تونيز »[5] و « نظرية مانهايم »[6] .

تحتل العلوم الاجتماعية كلها (وفى ضمنها علم الاجتماع) مكانة قلقة ومضطربة ، تقع بين منطقتى جذب . فعلى يمينها العلوم الطبيعية ، وعلى يسارها العلوم الانسانية . ويشغل علم الاجتماع محلا وسطا ، ولكنه لايقوم فى الغالب بواجب الارتباط الشكلي بين اليمين واليسار . فعلى اليمين لايزال علم النفس حائرا ومترددا فى التأكيد على نوع علاقاته ، فهل يقتصر على

---

(١) غرفتش (١٨٩٤ ـ) أستاذ فى السوربون . ومن أشهر كتبه « الاتجاهات المعاصرة فى الفلسفة الالمانية ١٩٣٠ » و « الخبرة القانونية والفلسفة الجماعية فى القانون ١٩٣٥ » و « الاخلاق النظرية ١٩٣٧ » و « اجتماعية القانون ١٩٤٠ » و « اجتماعية المعرفة » و « علم الاجتماع » .

(٢) فيركاندت (١٨٦٧ ـ) من أكبر دعاة الفينومينولوجيا فى علم الاجتماع الالمانى ـ (سنشرح نظريته) .

(٣) ماكس فيبر (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠) عالم اجتماعى ألمانى تأثر كثيرا بالمدرسة التاريخية التى كانت ذات نفوذ واسع فى الجامعات الالمانية . (سنشرح نظريته فى الفهم بالتفصيل) .

(٤) ولهلم دلتاى (١٨٣٣ ـ ١٩١١) من المفكرين الذين أثروا تأثيرا عميقا فى تاريخ الفكر الاجتماعى . تنبثق فلسفة « دلتاى » من مصدرين متناقضين هما : (١) الفلسفة التجريبية و (٢) الفلسفة المتعالية (وسنشرح نظريته بالتفصيل) .

(٥) ثونيز (١٨٥٥ ـ ١٩٣٦) اهتم بالفلسفة السياسية والعلوم الاجتماعية . اعتبر علم الاجتماع فرعا من الفلسفة ، ولهذا كان يلجأ الى علم النفس حيناً ، والى الطرق العلمية حيناً آخرا (وسنشرح نظريته بالتفصيل) .

(٦) كارل مانهايم (١٨٩٣ ـ ١٩٤٧) أحد علماء الاجتماع الذى يرجع اليه الفضل فى تأسيسى علم اجتماع المعرفة Wissenssoziologie . أخذ مانهامم نظريته من أربعة مصادر هى : (١) الفينومينولوجيا (٢) الماركسية (٣) ماكس فيبر ودلتاى (٤) علم النفس الكشتالتى .

علاقته بالعلوم الحياتية ، أم انه يحصرها فى نطاق العلوم الاجتماعية • كما تقوم الجغرافيا بدور همزة الوصل بين الدراسات الانسانية والعلوم الطبيعية• وكثيرا مانسمع عن محاولة ضم التاريـــخ وعلم الأثار الى حضيرة العلـوم الاجتماعية ، بينما يرى آخرون بضرورة الحاقهما بالفنون والأداب[٧] •

ويرى بعض العلماء امكانية الفصل بين العلوم على أساس صلابتهـا ـ وعرف هذا البعض الصلابة بالصعوبة العقلية التى يشتمل عليها العـلم ـ أو بمعنى آخر ـ المظهر الرياضى للعلم • ولهذا نجد أن علم الاقتصـاد يبذل كل مافى وسعه للاقتراب من العلوم الصلبة • ولا تقتصر صلابة العلوم على ذلك بل تتعداها الى الموضوعات التى تدرسها • خاصة وان الصلابة تشير الى مكانة سامية بين العلوم • ويرى البعض الآخر عدم فائـدة جردنا تلك الحقائق من هذين البعدين فأنها تفقد معانيها المألوفة • فمن الضـرورى أن نعتبر اجتماعى وطبيعى مظهرين لموضوع واحد ، يعالج كل منهما نفســس الموضوع من وجهة نظر معينة تختلف عن الاخرى • أما فى المانيا فتجمـع العلوم الاجتماعية والعلوم الانسانية ويطلق عليهما Geisteswissenschaften بعكس ما هو موجـود فى أميركا حيث يحاول علمـاء الاجتماع الفصل بينهما[٨] •

---

(٧) راجع الـكتب التالية :

Seligman, "What are the social sciences", Encyc. of soc. Scinces, I., The Macmillan Co., New york.

Beard, Charles, The nature of the social sciences, charles Seribner's Sons, New York, 1934.

Redfield, R., "Social sciences and Humanities Mesure, I."

(٨) راجع الـكتب التالية :

Cohen R., Morris, Reason and nature, an essay on the Meaning of scientific method, Harcourt, Brace and Company, New york, 1931, 333-367.

Chase, Stuart, The Proper Study of Mankind: AN Inquiry into the science of human relations, Harper and Brothers, New York, 1948.

Northrop, F.S.C., The Logic of The Sciences and the Humanities, Macmillan, New York, 1947.

Mill, J. S., System of Logic, London, 1949.

قلنا بأن الدراسات الاجتماعية كانت موضع نقاش بين منهجين للبحث هما (١) الفلسفة التجريبية التى ظهرت فى كل من فرنسا وبريطانيا و (٢) الفلسفة المتعالية التى سادت فى المانيا بعد « كنط » • فقد عبر كل من « جون لوك » و « دافيد هيوم » عن ثقتهما بالعلوم التجريبية ، وشكهما فى المنهج التأملى الميتافيزيقى ، وأرادا أن يقيما فى أرض التجربة والخبرة قواعد الطريقة العلمية ، التى تبحث فى معضلات الاخلاق ، والنظرية السياسية ، والذوق الفنى الجمالى • وقد اتبع عدد من الفلاسفة هذا المنهج فى البحث فى انكلترا مثل الفيلسوف « جون ستيوراث مل » فى كتابه System of Logic (١٨٤٣) • لقد أمن هوءلاء الفلاسفة بمنهج البحث التجريبى ، ودحضوا النظريات التأملية •

ظهرت فى المانيا فى الفترة الواقعة بين (١٧٧٠ - ١٨٣٠) حركتان فكريتان أثرتا فى توجيه الفكر الحديث هما :

(الحركة الرومانتيكية : التى لم تكن فى المانيا كما كانت فى انكلترا مجرد تغيير فى أسلوب الكتابة - وانما كانت دعوة الى فلسفة جديدة ، تحدّت « الفلسفة العقلية » التى سادت فى القرن الثامن عشر[٩] •

(٢) الحركة التأريخية : التى اهتمت بدراسة « الخلق القومى » و « الروح القومية » •

اختلطت كل هذه التأثيرات فى الفلسفة « الكنطية المتأخرة » • ففى كل

---

(٩) الفلسفة العقلية : تيّار فلسفى يعتبر العقل المصدر الوحيد للمعرفة الصحيحة الموثوق بها • وهو على النقيض من الفلسفة التجريبية التى تعتبر « الخبرة الحسية » مصدرا للمعرفة ، ومن أشهر الفلاسفة العقليين هم : « ديكارت » و « سبينوزا » الذين ناضلوا ضد الايديولوجى اللاهوتى - الاقطاعى ، من أجل انتصار العقل • ويعتبر الفيلسوف « ديكارت » مؤسس الفلسفة العقلية •

من « فخته »[١٠] و « شيللنغ »[١١] و « هيفل » اجتمعت فلسفة « كنط » المتعالية Transcendental والعقيدة الرومانتيكية فى القابليات الخلاقة ، المبدعة للانسان ، وصلتها الوثقى بعالم الروح ، وبالتطور الحضارى فى التاريخ البشرى .

تميز القرن الثامن عشر « عصر النور » بتدفق تيارات فلسفية عارمة ، اجتاحت أوربا الغربية ـ وخاصة فرنسا والمانيا وهولندة وانكلترا ـ تيارات انحدرت من الاوضاع الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والثقافية المتبدلة ، المتغيرة ، التى حاول بعض الفلاسفة الوقوف ضدها ، والحيلولة دون شيوعها وانتشارها ، بغية المحافظة على أعقاب كانت متزعزعة ومضطربة ،

---

(١٠) فخته (١٧٦٢ ـ ١٨١٤) يمثل الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ـ المثالية الذاتية ـ كان من اتباع الفيلسوف « كنط » ولكنه انتقد العنصر المادى فى الفلسفة الكنطية القائلة بالوجود الموضوعى « للشىء فى ذاته » . جعل « فخته » « أنا » (المفعول به) الواقع الوحيد ، والقوة الخلاقه ، التى تتفجر منها كل الاشياء ، التى تطابق « الوعى بالذات » الخاص بالانسانية كلها . يصبح « أنا » الذى دعا اليه « فخته » عبارة عن العقل ، والارادة ، والمعرفة ، والعمل أيضا . ينكر « فخته » الاساس الموضوعى للفعالية البشرية ، والعالم المادى الخارجى بقوانينه . وباتخاذ « أنا » « الينبوع » الذى ينفجر منه العالم الموضوعى ، فان « فخته » يؤكد عدم وجود « شىء خارج الذات » . وتعتبر هذه الآراء مناهضة للعلم ، ومناقضة للتجربة البشرية .

(١١) شيللنغ (١٧٧٧٥ ـ ١٨٥٤) فيلسوف مثالى أوجد جدلية مماثلة لجدلية « هيغل » ولكنه بدأ بالطبيعة أولا وليس بالتاريخ البشرى ، وقال بأن آخر مرحلة لتطور الوعى الذاتى تتجلى فى ادراك الانسان للفن . دعا الى « فلسفة التطابق » بين الكينونة والفكر ، وبين المادة والروح ، وبين الموضوع والذات ، واعتبر هذا « التطابق » هو السبب الاول فى العالم . وبهذا الرأى يشغل « شيللنغ » مكانة وسطى بين الفلسفة المادية والفلسفة المثالية .

راجع الكتب التالية :

Roguin, E., Sociologie, Partie de Philosophie, Lausanne, 1929, pp. 1-133.

Hyppolite, J., Genèse et Structure de la Phenomenclogie de L'espr,t du Hegel Aubier, Paris, 1946, pp. 1-30.

لم تستطع أن تصمد أمام وهج انوار العقل فى نضاله ضد الاساطير والخرافات .

كان هذا النضال بداية عصر جديد ، تمخض عن ثورة فكرية جذرية ، أثرت تأثيرا كبيرا فى النظم الفلسفية وخاصة فى زعيم المثالية ـ الفيلسوف « فردريك هيغل » ، الذى أراد أن يبحث فى طبيعة وخصائص تلك الثورة فى مجال ضيق ، وبمنهج مثالي ، قصره على الحياة الروحية ، مدعيا بأنه سيتذوق أهمية تلك الثورة بهذا المنهج .

ومما تجدر الاشارة اليه موقف « هيغل » من الثورة البورجوازية فى فرنسا سنة ١٧٨٩ الذى تغير وتبدل . فقد رحب « هيغل » بالثورة كل الترحيب فى البدء ، واعتبر « نابليون » بطلا من أبطال التاريخ ، وأنتقد بشدة كل معارضة تشنها الشعوب والملوك ضد حكم « نابليون » الذى اعتبره رمزا لمبادىء الثورة . الا ان « عهد الارهاب » و « امبراطورية نابليون » قد تركا فى تفكيره أثارا متأرجحة وقلقة . ولكنه كان يعتبر « الثورة الفرنسية » محاولة جبارة « لروح العالم » تحقق ذاتها على هذه الارض . وقد اعترف هيغل فى كتابه (فلسفة التاريخ) بصراحة أن التفكير العتيق ، والبناء الفلسفى القديم لا يمكنهما ان يقاوما الافكار الجديدة التى انبثقت مع الثورة الفرنسية ، الداعية الى حقوق الانسان ، والى ان الشعب مصدر السلطات ، والى وجوب تشريع القوانين لمصلحة أكثرية الشعب[١٢] . يعتقد « هيغل » بأن الثورة الفرنسية انطلقت من الفكر ـ وليس من العقيدة أو الايمان القائم على السلطة ، التى حققت « سيادة الذات » من قبل « الذات نفسها » .

ان البحث فى التناقض بين الفكر والعقيدة من اكثر مواضيع « الفينومينولوجيا » أهمية . فالهدف من التفكير الحر ، والفكر المجرد ، كما يقول « هيغل » تخليص الروح البشرية وتحريرها من الخطيئة الأساسية ،

---

(١٢) Hegel, F., Lecons Sur la Philosophie of L'histoire, II, pp. 224-29.

التى كانت موءلمة ومحزنة • ان هذا الخطأ ما هو الا « اللاعقلى » "Irrationnel" (١٣) • وجد « عصر النور » فى العقائد عالما لايمكن ادراكه بطريق التعليل العقلى المنطقى ـ وأيد « هيغل » عدم وجود الاشياء والمواضيع التى لايمكن أن يدركها العقل • وميز « هيغل » بين « العقيدة » و « العقل » بقوله أن « العقيدة وجدان أو وعى هاجع » على النقيض من « الوجدان المتيقظ » الذى هو « عصر النور » Aufklarung (١٤) •

ان النضال بين أفكار عصر النور والايمان الوضعى يوءلف المعضلات الأساسية التى واجهت « هيغل » فى فترة شبابه • وقد عبر عن ذلك النضال فى كتابه « الفينومينولوجيا » وبقى « هيغل » مخلصا لأراء عصر النور ،

---

(١٣) اللاعقلى : هو الشىء الذى لا يخضع للعقل ، ولا يمكن تفسيره وتوضيحه بالمفاهيم والبراهين المنطقية • واللاعقلية تيار فلسفى ، مثالى ، ينكر العقل فى التفكير ، والعلم ، والمقدرة على معرفة الحقيقة • ويعترف بأولوية الارادة ، والغريزة والحدس (اللقانة) ، والقوى العمياء اللاشعورية ـ تلك القوى التى عبر عنها كل من (شوبنهور) و « نيتشه » و « برغسون » و « جيمس » و « ديوى » وغيرهم •

(١٤) فيما يخص موقف « هيغل » من العقيدة وعصر النور ـ راجع المقال الذى نشره Hyppolite بعنوان « أفكار هيغل الشاب » المنشور فى مجلة « الميتافيزيقيا والاخلاق » فى عدد تموز وتشرين الاول سنة ١٩٣٥ • يعارض « هيغل » بين الدين الذاتى والدين الموضوعى ودين الشعب والدين الخاص • ويقدر « العنصر التاريخى لاى دينٍ •

(*) Hyppolite, J., Genèse et structure de la phenomenologie. de L'esprit du hegel, Abrier, paris, 1946, pp. 1-133.

Marcuse, H., Reason and Revolution, Hegel and the Rise of Social Theory, New York, the Humanities. Press, 1954, pp. 169-224.

ملاحظة :

كان « عصر النور » فى المانيا أكاديميا وشكليا • وكان ضعيفا الى درجةٍ لم يستطع ان يؤلف جبهةً موحدة ضد الغزو الاجنبى ، والخصومات المحليـة • حاولت الفلسفة الالمانيـة أن تفلسف ظهور أمةٍ منسجمةٍ ، متضامنةٍ ، ومتنافسةٍ • وكان مفهوم قيام دولة قوية موجودا قبل أن تؤدى الظروف المادية الى السلطة المطلقة بزمنٍ بعيـدٍ • وخير مثال على ذلك الفيلسوف « لايبنتز » (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) فى نظريته عن "Monda of Mondas"

راجع كتاب « أصول فلسفة الطبقة الوسطى فى عصر النور » تأليف ، هوريتز ، تعريب الدكتور عبدالجليل الطاهر ، مطبعة الرابطة ، ١٩٦١ ، ص (٣٥ ـ ٣٦) •

وللفلسفة العقلية • وبالرغم من اخلاصه هذا فانه كان قلقا ومتأرجحا •

كتب « هيغل » كتاب "The Phenomenology of Mind" (١٨٠٧) فى مدينة « ينا Jena » عندما كانت جيوش نابليون تقترب من المدينة ـ وانتهى من الكتاب عندما قررت معركة « ينا » مصير بروسيا ، وبدأت مرحلة جديدة فى تاريخ العالم ـ أثرت كثيرا فى تفكير « هيغل » • اذ كانت نقطة تحول فى منهج البحث التأريخى والفلسفى عن الحقيقة • رأى « هيغل » النتيجة التى آلت اليها الثورة الفرنسية ، فقامت على انقاضها أسس الحكم الاستبدادى ، ففسر مجراها كمرحلة تطورية ضرورية •

وقال أن عملية تحرر الفرد أدت الى الارهاب والتحطيم ، لان الفرد شهر سلاحه فى وجه الدولة ـ ولم تقم الدولة نفسها بعملية التحرر • فالدولة وحدها تستطيع أن تحقق الحرية الكاملة • فى مجالات العقل والاخلاق والدين والفلسفة • فربط بين تحقيق الحرية الكاملة ووجود الدولة المناسبة • وصف « هيغل » « الثورة الفرنسية ، بأنها حطمت نفسها بنفسها "Self - Destructive" لأن الوعي الذى كافحت به لتبديل العالم تبديلا يطابق المصالح الذاتية لم يجد تعبيره الواقعى الحقيقى • وبكلمة أخرى ان الانسان لم يستطع أن يكتشف مصلحته الحقيقية ، ولم يضع نفسه بحرية تحت سيادة القانون التى تضمن حريته وحرية الجميع • فالدولة الجديدة التى أقامتها الثورة ، كما يقول « هيغل » غيرت الشكل الخارجى فقط للعالم الموضوعى ، وجعلتها أداة ووسيلة للذات ولكنها لم تحقق حرية الذات الجوهرية • ولايتم ذلك الا بنقل الثورة الفرنسية الى الثقافة الجرمانية المثالية، وهكذا ينتقل تحقيق الحرية الحقيقية الكاملة من مستوى التاريخ الى الحقل الباطنى الداخلى للعقل ـ حقل العقل الواعي بذاته [١٥] •

---

(١٥)

Marcuse, H., Reason and Revolution, Hegel and the Rise of Social Theory, New York, The Humanities Press, 1954, pp. 169-224.

Hegel, G.W.F., The Philosophy of History, New York, Willey Book Co., 1944. pp. 1-103.

وبالرغم من أن « الفينومينولوجيا » مثالية ، لايمكن أن تقود البحوث الاجتماعية التجريبية ، فأنها اليوم شائعة فى الدراسات الاجتماعية والنفسية ـ والمواضيع التى تخوضها هى : « الوجدان المطـــلق » و « ألانا المتعالية » "Transcendental Ego" و « الصور الذهنية المتعاليـــة »[١٦] فقد غـــيرت الفينومينولوجيا بالفعل اتجاه الدراسات النفسية ونقلتها من مستوى الوقائـع الجامدة الى مستوى الظواهر ذات المعنى[١٧] .

تعرض « الفينومينولوجيا » خطأ التطور التأريخى للوجدان البشـرى ـ من الادراك الحسى المباشر ـ الى ـ المعرفة المطلقة ـ وتعتبر هذا التطـور عملية تطورية ذاتية Autodevelopment للروح التى ترقى الى الشعور والوعى بذاتها . وقد ميز « هيغل » فى هذه العملية التطورية ثلاث لحـظات هى : (١) الوعى (او الوجدان) و (٢) الوعى بالذات و (٣) العقل . فالقسم الاخير من « الفينومينولوجيا » يهتم بالروح والدين .

حاول « هيغل » أن يدرس مشكلة المعرفة « معرفة المطـــلق » ـ لان المطلق هو وحده الحقيقى ، والحقيقى هو وحده المطلق . وبدلا من أن تعرض معرفة المطلق نفسها بنفسها ، فأن « هيغل » يعتبر « المعـــرفة » كما هى فى « الوعي » (أو الوجدان) ـ أى ـ المعرفة الظواهرية (الفينومينولوجية) التى تنتقد نفسها بنفسها وترتفع الى مستوى المعرفة المطلقة[١٨] .

---

(١٦) "Transcendental" المتعالى : اصطلاح فلسفى يستعمله « كنط » ليعرف به المعرفة التى لا علاقة لها بالمضمون أو بمحتوى المعرفة ـ وأنما تتصل المعرفة باشكالٍ للمعرفة ـ أى قبـــل الخبرة ـ كالزمان والمكان والسببية والضرورة وغيرها من المقولات والمبادىء المنطقية ، فكل شيءٍ يسمو ويتفوق على حدود المعرفة التجريبية يعتبر متعاليا ومتفوقا .

Petit Dictionnaire Philoso Philoso Phique, Moscow, 1955.

(١٧) جان بول سارتر ، نظرية فى الانفعالات ، ترجمة الدكتور سامى محمود على وعبدالسلام القفاش ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ص ١٢ .

(١٨) يستعمل « هيغل » المطلق للمعارضة مع النسبى . فالمطلق خارج عن اطار كل علاقة ، وهو كلى ، وكامل ، ومنجز ، وهو اللحظة الحاسمة لتطور الفكرة ـ وهو الوعى المتحرر من الضرورات الطبيعية ومن الظروف الخارجية ، ومن كل مضمونٍ محدودٍ ، وتحقيق المطلق بنفسه فى ثلاث درجات هى : (١) المثل الاعلى الغنـّي الجمالى (٢) بشكل حقائق الوحى (الدين) (٣) وبالمعرفة العقلية المجردة . ويعنى المطلق « الله » .

٢ ـ الفينومينولوجيا الهيغللية :

يقول « هيغل » بأن « الفينومينولوجيا » ليست « أونتولوجيا »[١٩] • Ontology أو « نومينولوجيا » "Noumenology"[٢٠] ، وأنما هى محاولة معرفة المطلق ، لأن المطلق وحده الحقيقى ، وأن الحقيقة هى المطلق • وتدرس « الفينومينولوجيا » تطور الوعى (او الوجدان) الطبيعى وتقدمه نحو « المعرفة الفلسفية » أو « معرفة المطلق » • وبذلك يشير « هيغل » الى ضرورة تطور الوجدان ، والى « التكنيك » الذى تتبعه عملية التطور الفينومينولوجى ، ذلك التطور الذى يخلقه الوعى (أو الوجدان) المنهمك فى الخبرة •

أشار « هيغل » فى كتابه « الفينومينولوجيا » منتقدا الفكرة القائلة بأن « الفينومينولوجيا » ماهى الا « نظرية للمعرفة » • وأبان الصعوبة التى تنتج من العلاقة بين المعرفة وكيفية الحصول عليها ـ أى الوسيلة التى يمكن نيل المعرفة بواسطتها • وأكد ان الفكرة القائلة بوجود الصلة بين المعرفة والوسط او المحيط الذى تصدر منه ستوءدي حتما الى الغموض والابهام • وتكون المعرفة « نسبية » محدودة باطار وظروف المحيط ـ فان كانت المعرفة مشروطة بالمحيط أو الوسط ، فأن المحيط يغير الموضوع ـ موضوع

---

(١٩) "Ontology" اصطلاح فلسفى مشتق من الاصل اليونانى أى « علم الكينونة » على النقيض من الاغنوصية العجزية ، يعارض كل معرفة تحاول التثبت من الافكار خارج « الكينونة » أى أن المعرفة تعكس الموضوع الواقعى • وقد ميز Chrétien Wolf (١٦٧٩ ـ ١٧٥٤) الذى يرجع اليه الفضل فى نحت هذا الاصطلاح بين « علم الكينونة » و « علم المعرفة » •

(٢٠) Noumen يعنى « الشىء فى ذاته » الذى يتميز عن الظاهرة • ان مواضيع الخبرة وحدها هى « الظواهر » فهى نتيجة لعمل يؤثر فى الانسان بوحدة « غير معروفة » (الشىء فى ذاته) فلا يمكن معرفة « الماهية » • فالفصل بين الظواهر والبواطن ـ أو ـ الاشياء فى ذاتها ـ من مفاهيم الفلسفة الكنطية • « فالماهية » فى « التصور الفينومينولوجى » معنى الوقائع الفردية • فكل واقعةٍ فرديةٍ لها ما يميزها عن غيرها ، ولها خصائصها الضرورية • بحيث يمكن استخلاص الماهية عن طريق تحويل حدس الواقعة الفردية تحويلا مقصودا • تنكر الفلسفة المادية كل تمييزٍ وتفريقٍ بين هذين الامرين وأن كل الاشياء فى ذاتها تصبح اشياء لنا ـ أى ان كل مجهولٍ يصبح معلوما •

المعرفة ـ ولايمكن ان يعرض الحقائق بحالتها المجردة • لأن المحيط يغـير ويحور الحقائق تغييرا يتفق مع طبيعة المحيط • ومعنى ذلك أن ذاتية المعرفة منفصلة عن موضوعها • ويصبح المطلق متميزا عن المعرفة ـ ولايمـكن ان يصبح المطلق معروفا بذاته ، ولا تستطيع المعرفة أن تفهم المطلق • وبذلـك تنفصل المعرفة الظواهرية عن المعرفة المطلقة • الا أن « هيغل » يبين عـلى العكس من ذلك بأن المعرفة الظواهرية ـ أى معرفة الوجدان المشترك ـ توءدى وتقود بالضرورة الى المعرفة المطلقة • ومعنى ذلك أن « هيغل » يعود الى وجهة نظر كل من « فخته » و « كنط »(٢١) •

أما « شيللنغ » فأنه يعرف « الفينومينولوجيا » بأنها « علم المطلق » • بينما يقول « كنط » و « فخته » بوجوب دراسة المعرفة الخاصة بالوجـدان الذى يفرق بين الذات والموضوع • ولكنهما جعلا فكرة « المعرفة المطلقة » نهاية لتطور الوجدان • يصبح المطلق عبارة عن المعرفة بالشيء ذاته ـ وتكون المعرفة الفينومينولوجية (الظواهرية) المعرفة التقدمية التى توءدى الى المطلق ـ أى أن الوجدان الفينومينولوجى يرتفع الى مستوى الوجـدان او الوعى بالمعرفة المطلقة ـ وبذلك لا ينفصل الانعكاس عن المطلق ـ ويكون الانعكاس لحظة من لحظات المطلق •

---

(٢١) « الاشياء فى ذاتها » و « الاشياء لنا » اصطلاحان فلسفيان أوجدهما الفيلسوف « كنط » أى ان المواضيع والاشياء توجد مستقلة عن الوجدان البشرى ، أى انه لا يمكن ادراك الاشياء فى ذاتها مطلقا ولا يمكن أن تصبح أشياء لنا ـ معروفة ومعلومة • وبذلك حفر « كنط » هوة سحيقة بين الشيء فى ذاته و « الظاهرة » ومعنى ذلك اننا لا نستطيع أن نحصل على فكرة « للشيء فى ذاته » لان المعرفة لا تدرك الا الظواهر ـ أى أن الحواس لا تستطيع ان تتغلغل فى صميم « الشيء بذاته » • يحاول هذا المبدأ أن يوفق بين العلم والدين • تعارض المادية الجدلية هذه الفكرة ، وتقول بعدم وجود شيء قائم بذاته غير قابل للمعرفة ، وانما هناك فرق فقط بين ما هو معروف سلفا « شيء لنا » وما هو غير معروف بعد « شيء قائم بذاته » • فعندما يستطيع العلم أن يكشف عن الشيء القائم بذاته يصبح بكل تأكيد شيئا لنا • فلنأخذ مثالا على ذلك ـ الطاقة الذرية ـ كانت شيئاً قائما بذاته ، فحين أصبحت فى متناول أيدينا بفضل التقدم العلمى ، صارت « شيئا لنا » • كما أن عدد الاشياء القائمة بذاتها أخذت تقل كثيرا عما كانت عليه سابقا وازداد عدد الاشياء المعلومة « الاشياء لنا » •

أراد « هيغل » التقدم من المعرفة التجريبية الى المعرفة الفلسفية ـ من الحقيقة الحسية الى المعرفة المطلقة • تختلف هـذه « الفينومينولوجيا » التى تعرض نفسها كتاريخ لتطور الروح عن « الاستنتاج التصورى » الذى قال به « فخته » أو « المثالية المتعالية التصورية » التى دعا اليها « شيللنغ » • حاول « فخته » أن يقود « الوجدان المشترك » للمعرفة المباشرة الى معرفة الـذات الفلسفية • أما « الفينومينولوجيا » الهيغللية فأنها تعرض التطـور التلقائى للخبرة كما تبدو للوجدان ـ من المعرفة التجريبية الى المعـرفة الفلسـفية ـ من اليقين الحسى الى المعرفة المطلقة • وتختلف « فينومينولوجيا » هيغل بنقطة أخرى تتعلق بالخبرة • فالخبرة التى تصنع الوجدان ليست الخبرة النظرية ، معرفة الموضوع ، وانما كل نوع من أنواع الخبرة • فيجب أن نأخذ بنظـر الأعتبار حياة الوجدان لانه يدرك العالم كموضوع من مواضيع العلم ، بينما يفرض لنفسه هدفا • اى اننا نعنى كل أنواع الخبرة : الاخلاقية ، والقانونية ، والدينية محل خبرة الوجدان بصورة عامة •

« الفينومينولوجيا » اذن الطريق الذى تسلكه الروح ، وهـو درب مسيرتها الذى ترتفع فى ولوجه الى مستوى الوعى بذاتها ـ بواسـطة ـ الوجدان • « فالفينومينولوجيا » تعنى قصة الحضارة الفلسفية ، لانها تتعقب تطور الوجدان الذى ينتقل من معتقداته الاولى ـ عبر الخبرات الطويـلة المتلاحقة الى التفكير الفلسفى ـ الى معرفة المطلق • ويقول « هيغـل » بـأن تاريخ تطور الوجدان ليس قصة أو رواية وانما هو عمل علمى ـ اذ يعرض تطور الوجدان ضرورة فى نفسه تنتج من طبيعة الوجدان نفسه(٢٢) •

ولما كانت « الفينومينولوجيا » دراسة سلسلة طويلة من خبرات الوجدان التى تؤدى دائما الى نتائج سلبية ، فعلى الوجدان أن ينتقل من معتقداته الاولى التى يلابسها الغموض والابهام الى معتقدات أخرى :« هذا هو طريق الشك

---

(٢٢) قرأ « هيغل » كتاب « أميل » لمؤلفه « روسو » فوجد فيه أول تاريخ للوجدان الطبيعى الذى ارتفع بنفسه بعد سلسلةٍ طويلةٍ من الخبرات الخاصة ـ تلك الخبرات الخالقة للحرية •

ـ أو بكلمة دقيقة ـ طريق اليأس[٢٣] • وفى هذا الصدد يقول « شيللنغ » بأن « المثالية المتعالية » Idealisme Transcendental تبدأ بالضرورة فى « الشك الشامل » الشك الذى يشمل كل الواقع الموضوعى • ففى « الفلسفة المتعالية » يكون الذات الاول والاساس الوحيد لكل الواقع ، والمبدأ الوحيد الذى نستطيع به أن نفسر ونوضح كل شىء ـ فالفلسفة المتعالية تبدأ بالضرورة فى الشك الشامل بواقع الموضوع • وكان للفيلسوف « ديكارت » الفضل بتدشين الفلسفة الحديثة بهذا الشك الذى اعتبره « شيللنغ » الواسطة الضرورية للدخول فى « المثالية المتعالية » عن طريق التوحيد بين الموضوعى والمبدأ الذاتى المجرد للمعرفة • بينما تحاول الفلسفة الطبيعية التخلص من « الذاتى » • أما « هيغل » الذى ينطلق من الوجدان المشترك فانه يعارض فكرة « الشك المنظم الشامل » فى تطور الوجدان الذى يتقدم بالشك فيما كان يعتقد به حقيقيا وصحيحا • وبمعنى أخر أن الطريق الذى يسلكه الوجدان هو التاريخ الموسع لتكوين الوجدان نفسه[٢٤] • وبذلك يستطيع الوجدان ان ينقى نفسه ويطهرها من كل أنواع التحيز والتغرض • وخاصة تلك الانواع الناتجة من وجود الاشياء المستقلة عن المعرفة • فا « لفينومينولوجيا » اذن هى تاريخ واضح للوجدان ـ تاريخ لخروجه من الغار وصعوده الى مرتبة العلم • فليس الشك وحده طريق الفينومينولوجيا وأنما الشك اليائس ـ الفعال •

٣ ـ الفينومينولوجيا والتاريخ :

هل ان « الفينومينولوجيا » هى تاريخ الانسانية ؟ وهل هى فلسفة هذا التاريخ ؟ فاذا كان الامر كذلك فلابد من البحث عن الصلة بين « الفينومينولوجيا » و « فلسفة التاريخ » • يبحث التاريخ عن الكل او المجموع وليس الفرد • فلا يوجد غير تاريخ الانسانية • وان ذلك التاريخ عبارة عن الحالة الضرورية المطابقة للحرية ـ التى ينسجم فيها الموضوع مع الذات ، واللاشعور مع الشعور • وبمعنى أخر يجب أن تكون الحرية ضمانا للنظام الثابت الذى

---

(٢٣) Phenomenologie, I, p. 69.

(٢٤) Phenomenologie, I, p. 70.

يبدو كنظام للطبيعة • ويجب ان يكون للتاريخ معنى • وليس عمل الفرد الا جزئى فقط وبه تتحقق الحرية • ولهذا نظر « شيللنغ » الى التاريخ وليس كأنه عمل من أعمال الافراد فقط وأنما وحى للمطلق نفسه • فالضرورة يجب أن تكون فى الحرية ـ التى تنتج بصورة لاشعورية ـ أى ـ بدون مشاركتى ـ لانى لاأستطيع أن أتبينها ـ أو أن أشملها بفعاليتى الشعورية الواعية •

ونظر « فخته » الى التاريخ باعتباره نظاما خلقيا للعالم الذى يجب أن يكون تحقيقا فعالا وضروريا لمصير الحرية نفسها •

يتبع « هيغل » و « شيللنغ » فى وجهة النظر هذه ـ ويعتبر الفكرة الأساسية للتاريخ كتقدم نحو حرية عقلية حقيقية • لان العقل سيد العالم ـ وبذلك يكشف لنا التاريخ تصيرا عقليا •

يعتقد « شيللنغ » بأن « المطلق » هو الشرط الاساسى لتكوين التاريخ ـ وأن التاريخ فى مجموعه عبارة عن وحى مستمر ومتقدم للمطلق • فألتاريخ تعبير للمطلق • أما « هيغل » فانه اعتبر التاريخ « تاريخ الروح البشرية » ـ بينما اعتبره « شيللنغ » الحياة بأجمعها ـ أى تفكير الطبيعة • فالعقل ـ هو العنصر الثابت ، هو الجوهر ، وهو القوة اللامتناهية ، التى تكمن وراء كل الحياة الروحية والطبيعية ، الذى يضع المادة فى حركة • فالعقل هو الجوهر والماهية ـ جوهر العالم وماهيته ـ الذى ينال كل واقع به على كينونته وماهيته أيضا • ومن الجهة الاخرى هو الطاقة اللامتناهية للعالم • ان العقل هو « الحقيقى » وهو « الخالد » وهو « الجوهر القادر المطلق » وأنه يكشف عن نفسه فى العالم ، ولا شىء فى العالم يستحق الكشف عنه غير أمجاده وشرفه •

يلعب التاريخ فى « الفينومينولوجيا » دورا كبيرا ـ لأن ـ « الفينومينولوجيا » تشمل أقساما عظيمة هى : الوعى ، والوعى بالذات ، والعقل • فالوعى بالذات يتألف نتيجة لنضالات واعية ـ مثل النضال بين السادة والعبيد ـ تلك النضالات التى لا يمكن أن تعتبر طارئة ومؤقتة ، لانها موجودة فى جذور كل المدنيات البشرية • وليس من الضرورى ان تكون

تلك الاقسام او اللحظات الثـــلاث (الوعى ، والوعى بالذات ، والعقل) متعاقبة ـ كاللحظات الثلاث : (اليقين الحسى ، والادراك ، والفهم) •

فالفينومينولوجيا تعنى رفع الوجدان التجريبى الى المعرفة المطلقة • ولا يتم هذا الانتقال الا بعد أن يكشف (الوعى) فى ذاته الخطوات الضرورية لانتقاله • فالمشكلة التى تظهرها « الفينومينولوجيا » ليست تاريخ العالم ، وانما مشكلة تربية وجدان الفرد الواحد • فالمحاولة اذن « تربيوية » وهى التـى أشار اليها « روسو » فى كتابه « أميل » ـ اذ يقول بأن تطور الفرد يعيـــد بأختصار تطور النو عالبشرى ـ فيجب أن يسبق عصـــر الحواس عصـر التفكـــير •

اذن توجد علاقة بين فلسفة التاريخوالفينومينولوجيا ـ فالفينومينولوجيا هى التطور الواضح المعلوم لثقافة الفرد ـ أى ـ السمو من ذاته المحدودة الى ذاته المطلقة • ولايمكن تحقيقهذا « التعالى » أو « التسامى » اذا لم يستفد الفرد من لحظات التاريخ المتفوقة لهذا الوجدان الفردى •

يظهر من هذا العرض الموجز أن الفينولينولوجيا تقوم بمحاولتين :

١ ـ التقدم بالوجدان التجريبى الى المعرفة المطلقة ـ الى الفلسفة ـ التى يتحد فيها الوعى بالذات بالوعى بالكينونة •

٢ ـ السمو بالذات الفردية الى الذات البشرية ـ والانتقال من الذات المحدودة الى الذات المطلقة •

يصبح الوجدان الفردى ناقصا يريد الصعود الى مستوى المعرفة المطلقة الكاملة • فتكون المشكلة الفردية هى المشكلة الرئيسة عند « هيغل » ـ وجعل « الفردية » وكأنها نقض النقيض •

ويقول « هيغل » بأن الوجدان يمر فى ثلاث مراحل أساسية هى :

١ ـ الوعى بالمواضيع المجردة الناقصة •

٢ ـ الوعى بعالم الروح المتناهى •

٣ ـ الوعى بالروح المطلقة •

وأراد ان يجعل « الفينومينولوجيا » الخاصة بالروح أن تحل محل « علم النفس » •

يصبح التاريخ العام الشامل عرضا للروح فى محاولتها لمعرفة ما كان ممكنا تجسيده • ولما كانت البذرة تحمل فى صلبها خصائص وطبيعة الشجرة نفسها ، من حيث طعمها ، وشكل ثمارها ، فان الروح كذلك تتضمن كل خصائص وطبيعة التاريخ • فالشرقيون لم يتذوقوا طعم الحرية ، ولم يعرفوا الروح ، لانهم أدركوا بأنهم لم يكونوا أحرارا • كانوا يعرفون فقط حرية الشخص الواحد • ولكن حرية هذا الشخص الواحد لم تكن فى الواقع غير عبودية للشهوات والنزوات ـ فالشخص الواحد ـ طاغية وليس رجلا حرا • انبثق الوعى بالحرية اولا بين اليونانيين ـ فكانوا أحرارا ، ولكنهم لم يعرفوا الا حرية الاقلية • وحتى افلاطون وارسطو لم يدركا ذلك • اذ كان لليونانيين عبيد ـ ولذا كان تأريخهم ممزوجا بموءسسة العبودية • الا ان الشعب الجرمانى ـ بتأثير المسيحية كان أول شعب أدرك ، ووعى بأن الانسان ـ كأنسان ـ حر • هذه هى حرية الروح التى توءلف جوهرها وماهيتها • فتاريخ العالم عبارة عن مسيرة كبرى لتحقيق مبدأ الحرية •

وتستخدم الروح فى تحقيق فكرة الحرية حاجات الناس ، وعواطفهم، ومواهبهم • فالحاجات والعواطف والانفعالات والمواهب هى المصدر الوحيد لانطلاق الناس فى أعمالهم • فالحاجة هى القوة الدافعة • ويوءكد « هيغل » على ضرورة توافر الانفعال لانجاز الامور العظيمة فى العالم • فلا بد من توافر أمرين هما :

(١) الفكرة (٢) مركب من الانفعالات البشرية • فالاولى لحمة نسيج التاريخ العالمى والثانية سداها •

يبدأ تأريخ العالم بهدف عام ـ هو ـ تحقيق فكرة الروح•ومن واجب التاريخ أن يكشف عن هذه الروح الخفية اللاشعورية ليجعلها واعية وشعورية • وهكذا يكون العقل هو الذى يحكم العالم • وبالنتيجة يحكم

تاريخه[٢٥] • يعرض لنا المنطق بنية العقل ، وتكشف فلسفة التاريخ المحتوى التاريخى للعقل • فالعقل سيد العالم • الا أن « هيغل » ظن بأن التاريخ قد وصل الى أهدافه ـ وأن الفكرة والواقع قد وجدا أساسا مشتركا ـ بتسلم الطبقة الوسطى زمام الحكم بيديها • لان فكرة الحرية ـ بالنسبة له ـ انحدرت من فكرة « الملكية الحرة » • ولهذا لم تبحث جدلية « هيغل » عن مايحدث بعد تسلم الطبقة الوسطى السلطة ، وبعد انحلالها وموتها كطبقة تاريخية •

يقول « هيغل » بأن القوة الدافعة فى التاريخ هى « العقل » وأن جوهر العقل ـ هو ـ الحرية ـ فالمحتوى الحقيقى للتاريخ ـ هو ـ تحقيق الوعى الذاتى بالحرية •[٢٦] نستنتج من ذلك بأن القوانين التاريخية تتكون وتنمو فى تجربة الانسان الواعية • فاذا لم يستطع الانسان أن يتذوق الحرية ، ويعمل جاهدا على تحقيقها فان قوانين التقدم تتعطل • تقوم جبرية « هيغل » على أساس أن الحرية هى العامل المقرر ، وان تقدم التاريخ يعتمد على مقدرة الانسان على ادراك المصلحة الشاملة للعقل ، وعلى ارادة الانسان واندفاعه لجعلها حقيقة واقعة • فكيف أذن يمكن التوفيق بين المصالح الخاصة للافراد والمصلحة الشاملة ، وكيف يمكن أن يبرز الوعى الذاتى بالحرية فى التجربة البشرية ؟ وتجربة أى فرد يمكن ان تعتبر التجربة التاريخية ؟

يجيب « هيغل » بقوله تجربة الافراد الذين يرتفعون ويسمون فوق مستوى المصالح الفردية ، والذين يريدون خلق أنماط جديدة للحياة ـ هم رجال التاريخ ـ كالاسكندر والقيصر ونابليون • فمصالح هؤلاء اندمجت

---

(٢٥)

Hegel, G. F., The Philosophy of History, New York, Willey Book Co., 1944, pp. 1-103, 111-176, 223-236.

Man and the State, the Political Philosophers, the World's Great Thinkers, pp. 412-414.

Hegel G. W. F., La Phenomenologie de L'Esprit Paris, Aubier, Tome I, pp. 81-167.

(٢٦)

Marcuse, H., Reason and Revolution, Hegel and the Rise of Social Theory, New York, the Humainties Press, pp. 169-224.

وتكاملت مع المصلحة الشاملة ، فهم الذين يوجهون التاريخ ، وهم الذين يتنبأون عن « الضرورى » ويعرفون الخطوات التى يجب أن يتبعها التاريخ • ولكن هوءلاء الرجال فى الواقع ينفذون ارادة « العقل الشامل العالمى » ، فهم مجرد الآت وادوات • فالعقل العالمى يعمل كقوة مجهولة لايمكن مقاومتها • كالانتقال من الحضارة الشرقية الى الحضارة الاغريقية ، وظهور الاقطاعية ، وتأسيس المجتمع البورجوازى • كل هذه التغيرات والتبدلات كانت النتائج الضرورية للقوى التاريخية الموضوعية •

ويجب أن نحكم على تاريخ أية أمة بمقدار اضافاتها ومعطياتها التى قدمتها الى الانسانية ـ من أجل تحقيق الوعى الذاتى بالحرية • فالامم متباينة ومختلفة فى اضافاتها ومعطياتها • فان بعضها أكثر نشاطا واندفاعا من الدول الاخرى ، اذ قفزت بتاريخ الانسانية قدما الى الامام فأبدعت اشكالا جديدة فى التاريخ ، بينما لم تلعب دول أخرى غير دور ثانوى[٢٧] •

٤ ـ الفينومينولوجيا ونظرية الفهم (Verstehen) :

يبدو بكل وضوح وجلاء بأن « الفينومينولوجيا » ذات صلة وثيقة بنظرية « الفهم » التى دعا اليها كل من « دلتاى » و « ماكس فيبر » اللذين اعتبراها طريقة مثلى لدراسة التاريخ ومنهجا للبحث فى علم الاجتماع • وتعتمد « الفينومينولوجيا » و « نظرية الفهم » على شكل من اشكال الوعى والشعور الذى تكون فيه خبرة الآخرين قد أصبحت جزءا من خبرتنا الشخصية » ـ وبمعنى اخر ـ اعادة تاريخ حياة خبرة الآخرين فى وجداننا ، وذلك بسبب الأسس المشتركة والمتماثلة للطبيعة البشرية • تصبح مواضيع البحث والدرس فى علم الاجتماع ـ الخبرات الروحية والعقلية ، وفى تلك الخبرات تكون « أنا » هى التى تمارس الخبرة ، وان خبرتها متميزة عن خبرات الآخرين ولكنها مرتبطة بها ارتباطا وثيقا ، لتوءلف نقطة للتحليل لايمكن فهمها وادراكها الا بمعرفة طبيعتها بهذا المنهج • ومن الممكن القول

---

(٢٧)

Hegel, G.W.F., The Philosophy of History, New York, Willey Co., 1944, pp. 438-457.

بأن منهج البحث الفينومينولوجى يهتم بمايلى :

١ ـ يهتم منهج البحث الفينومينولوجى بالتصورات والمفاهيم الاخيرة النهائية ـ أى التصورات التى لا يمكن اشتقاقها من التصورات الاخرى •

٢ ـ لايمكن ترتيب وتصنيف تلك التصورات وفهمها الا بالرجوع الى الخبرة ـ أى بتوضيح جوهر تلك التصورات بأمثلة واقعية أو خيالية ، بطريقة التأمل الداخلى الذاتى • كما تجدر الاشارة الى عقد موازنات ومقارنات بين التصورات والظروف والوقائع التى تتصل بها •

٣ ـ يمكن الحصول على تبصر متغلغل وعميق فى جوهر تلك التصورات بالرجوع الى حالة منفردة واحدة وليس من الضرورى أن تكون حالة واقعية ـ ومعنى ذلك عدم الرجوع الى حالات كثيرة ومتعددة ، وعدم اتباع الطريقة الاستقرائية ، لأن منهج البحث الفينومينولوجى هو « التجريد التصورى » ومن الحالة « المجردة التصورية » المنفردة ، الوحيدة يمكن الوصول الى بعض القواعد العامة •

يصبح المجتمع بالنسبة لعلم « الاجتماع الفينومينولوجى » عبارة عن مادة الخبرة الذاتية الداخلية للفرد(٢٨) • أى عبارة عن أخيلة وتصورات ، تربط الافراد بعضهم ببعض • كما دعا الى ذلك « فخته » قائلا بأن « انا » الينبوع الذى ينفجر منه العالم الموضوعى ، وجعل من « ألانا المجردة » وجدانا بشريا شاملا ، وان « أنا المجردة » نظام مغلق وكامل متماثل ومتشابه فى جميع الافراد • ومعنى ذلك أن « فخته » يؤمن بالحدس العميق ذى الصفة الجدلية بين الذات والموضوع والنظرية والتجربة(٢٩) • فا « لأنا »

---

(٢٨) House, F. N., The Development of Sociology, New york, Mcgraw - Hill Book Company Inc., 1936, pp. 403-411.

(٢٩) تدعى وجهة النظر هذه Solipism ـ وهى نظرة مثالية لا تعترف بشىء آخر فى العالم غير الانسان ووجدانه • فكل شىء نتاج للوجدن البشرى • وقد قال Shiller بأنه المبدأ الذى يعتبر كل الوجود عبارة عن خبرة • ويرى هذا المبدأ بأن الفرد بوجدانه هو الواقع • وأتهمه بعض الفلاسفة بأنه يدعو الى الانانية •

هى التى تفكر فتبدل الموضوع • تصبح الجدلية الفينومينولوجية عبارة عن جدلية الخبرة الفردية • يجب على « ألانا » كما يقول « هيغل » أن ترتفع فى مستوى يقينها الى الحقيقة ، وعليها أن تسير من : الوعى ـ الى ـ الوعى بالموضوع ـ الى ـ الوعي بالذات ـ وأخيرا الوحدة بين الوعى والوعى بالذات • أى ان الوعى ينظر الى مضمون الموضوع كذاته ، وذاته مقررة بذاته من أجل ذاته • وعندما تتم الوحدة بين الروح الذاتية والروح الموضوعية ـ تنتج الروح المطلقة التى تظهر فى الفن والدين والفلسفة[٣٠] •

آ ـ فينومينولوجية دلتاى (Dilthey) :

تأثر « دلتاى » بالحركتين الفلسفيتين « الرومانتيكية » و « التأريخية » • ورأى أن واجب الفلسفة أن تقيم أسسا منطقية للدراسات التاريخية ، لاتختلف عن الأسس المنطقية اتى وضعها « كنط » للعلوم الطبيعية • وأعتقد « دلتاى » بامكانية الجمع والتوحيد بين منهج البحث التجريبى والطريقة التأملية ، ولكنه أخفق فى هذه المحاولة • أراد « دلتاى » أن يوجد منهجا للبحث خاصا بالدراسات الانسانية ، مختلفا عن منهج البحث فى العلوم الطبيعية • وقال أن الفلاسفة التجريبيين والوضعيين حاولوا اتباع مناهج البحث المطبقة فى العلوم الطبيعية على الدراسات الانسانية ولكنهم فشلوا فى النفوذ والتغلغل فى صميم الفعاليات العقلية ذات الخيال الخالق المبدع • ان المشاركة الوجدانية القائمة على التشابه والتماثل فى الطبيعة البشرية تساعدنا فى فهم الدوافع والحوافز التى تحرك الناس وتدفعهم للقيام ببعض الاعمال • وبذلك تكون « الدراسات الانسانية » قادرة على معرفة الواقع وفهمه •

وقال « دلتاى » بوجود صلات وثيقة بين الفهم والتعبير ـ بين الخبرة والالفاظ التى نختارها للتعبير عن تلك الخبرة • فكل خبرة نابضة بالحياة تؤلف قسما من تاريخ العقل وتؤدى الى التعبير ببعض الالفاظ ، التى تصف المشاعر والأحاسيس والانطباعات ـ عن طريق تكوين صور واضحة ودقيقة

---

(٣٠) Hyppolite, J., Genèse et Structure de la phenomenologie de L'Esprit du Hegel, Aubier, Paris, 1946, pp. 42-44.

فى العقل ـ وخاصة فى أساليب التعبير كالالفاظ والاشارات والملامح • توجد أساليب مختلفة للتعبير ، فبعضها أوتوماتيكى ، ولا ارادى ، والبعض الآخر مفتعل ومقصود • وقد لاتجد بعض الأحاسيس الاطارات العلنية التى تناسبها كالالفاظ والاشارات والملامح والحركات • وعلى كل حال فاننا لا نستطيع أن نحصل على فكرة ، أو نسبر أعماق حياتنا العاطفية حتى نستطيع أن نعبر عنها • فالتعبير اذن جوهرى وأساسى • فاذا كان التأمل أو ـ الاستبطان ـ لا يقدر على أن يجد أساليب التعبير المناسبة يكون طريقة بليدة •

ومادام مجرى الحوادث النفسية يسير بسرعة ، بحيث ان كل فكرة ، أو أن كل احساس ، يذوب بصورة متصلبة فى الفكرة أو الاحساس الذى يعقبه ، يصبح من الصعب جدا أن نحصل على وجهة نظر ثابتة لما يجرى فى أنفسنا • يصبح واضحا بأن التعبير ـ هو القاعدة ـ التى تقام عليها معرفتنا وتشاد عقولنا • فالنظر الى وجه أحد الناس • الذى كان مكسور الخاطر ، تملأ عينيه الدموع ، هى تعابير الحزن ، فلا يمكننى فهم تلك التعابير بدون احساس وشعور فى نفسى بعكس الحزن الذى ارتسم على وجه ذلك الشخص الحزين • وبالرغم من أن احساس الحزن هذا تعبير لفرد أخر ، يؤلف جزءا من تاريخه العقلى ، فانه يعيش فى قرارة نفسى ، وأنه ينتج نفسه فى وجدانى •

على هذا الأساس تقوم كل معرفتى بالشخص الآخر • وبفضل ماعبر به الشخص الآخر استطعت أن أعيش خبرته فى وجدانى ـ هذا هو جوهر المعرفة وأساس الفهم ـ فعندما أعيد حياة خبرة أحد الافراد فى وجدانى ، تصبح خبرته جزءا من تاريخى العقلى • فمن جهة أكون واعيا بتلك الخبرة ، التى ترجع الى المشاركة الوجدانية ـ ومن الجهة الثانية ، ليست تلك الخبرة ناتجة من ظروفى الشخصية ، ولكنها انعكاس فى وجدانى لخبرة أحد الافراد الآخرين نتيجة لظروف خاصة أثرت فيه • وبمعنى أخر أن الخبرة والظروف بعيدة عن مجرى حياتى الخاصة • ويعنى ذلك فهم الشخص

الاخر كما لو كانت له حياة داخلية تشبه جوهريا حياتى الداخلية • وبذلك « أعيد كشف نفسى فى الشخص الآخر » •

فالفهم (او المعرفة) شديد الصلة بالمشاركة الوجدانية وبالرغم من أنهما يتمشيان سوية فى العادة ولكنهما مختلفان[٣١] •

لايمكن الحصول على المعرفة بدون المشاركة الوجدانية • فاذا أردت أن اصف الشعور الموحش الكئيب لدى بعض الناس فلا بد لى أن أخلق مثل هذا الشعور فى وجدانى • ان هذه العملية سريعة وأوتوماتيكية • لان التعبير يبدو على نبرات صوتى ، وملامح وجهى ، وحركات يدى •

ولكن يزداد الأمر تعقيدا اذا كنا نتوخى فهم سلسلة طويلة من الحوادث والأعمال ـ كتاريخ فترة زمنية ، أو حياة أمة أو مؤسسة ، فأننا لانستطيع ادراك غير بعض الخطوط العامة الرئيسة ، فمن الصعب جدا ، ادراك حوادث استغرقت سنين عديدة • وفى ذلك نتبع مبدأ « المطابقة » ـ بين تلك الحوادث والطبيعة البشرية • ومعنى ذلك اننا نجمع الأدلة والبراهين التى تطابق الطبيعة البشرية • فعندما أتطلع الى وجه أحد الافراد فأتبين التعابير عليه أجد أنها تثير فى أحاسيس هى ليست أحاسيس ولكنها استجابة لتعابير وجه ذلك الفرد • فهى حياتى لانها فى وجدانى ، وهى ليست حياتى لانها استجابة لحياة شخص أخر ، عاش فى وضعية لم أعشها أنا شخصيا • وهكذا استطيع أن أفهم الحوادث المدونة فى المصادر التأريخية • ان منهج البحث الموضوعى هو أكثر المناهج ذاتية ، بالرغم من كل ما لدينا من حقائق عامة ، وأن نُعيد حياة ماندرسه من حوادث ووقائع فى أنفسنا • يدعو « دلتاي » ذلك «بالمعنى» "Meaning" •

يشير « المعنى » الى العلاقة بين الجزء والكل فى الحياة العقلية • ويعرف « دلتاى » « المعنى » بالفهم Das Verstehen • **الذى يعبر عن العلاقة بين**

---

(٣١) راجع الكتب التالية :

Hodges, H. A., Wilheum Dilthey, an Introduction, New York, Oxford Uniuersity Press, 1944, pp. 11-36.

Mandelbaum, M., The Problem of Historical Knowledge, New York, 1938, pp. 58-67.

الجزء والكل فى عملية « حية » • بهذا يكـــون « الفهم » الصفة المميزة للدراسات الانسانية ، على النقيض من الدارسات الطبيعية •

تبدأ معضلة المعرفة التاريخية با « لفهـــم » • لأن الخبرة المباشـــرة (Erlebnis) وحدها تستطيع أن تقدم لنا Autobiography « كتابة السير الشخصية » ـ وتتطلب المعرفة التاريخية ان تكون لنا معرفة بالحياة كما خبرها الآخرون • فبفضل « الفهم » نمسك بالحوادث الداخليـة (Ein Inneres) بواسطة الرموز والاشارات التى تتوصل اليها الحواس من الخارج • ويصبح الفهم « عملا طبيعيا » يعتمد على الرموز الحسية ـ الموجهة نحو معرفة « الواقع النفسى » • تكون الحياة الواقعية داخلية ونفسية • يعنى ذلك فهم الاشـــكال التى تفصح الروح عن نفسها بفعالياتها فى العالم الخارجى • هذا هو مبـدأ « دلتاى » عن تجسيد الحياة • يتطلب « الفهم » واعادة الخبرة ـ اعادة الحياة للخبرة ـ أى الخبرة ذات المعنى(٣٢) • فان كان الشخص الذى يدون تاريخ حياته الشخصية ذا مشاركة وجدانية عميقة وواسعة وصميمة فأنه يســـمو ويتفوق على حدود تاريخه الشخصى ـ ليصبح تاريخه تاريخا لعصره •

والخطوة الثانية فى تدوين التاريخ هى "Biography" أى كتابة سير الآخرين فيجب أن يظهر كاتب السير ادراكا عميقا ، ليصور الشخص تصويرا دقيقا كما لو أنه عاش معه وعاشره • والخطوة الثالثـة والأخـيرة « تدوين التاريخ » بأنه « تجسيد العقل » او « تجسيد الروح » أو « تجسيد الحياة » • ماذا يعنى « دلتاي » بذلك ؟ يعنى به مجموعة التعابير الخاصة بالحياة العقليـة ، تلك التعابير المستمرة ، الدائمة ، وتشمل كل مايزخر به المحيط من حضارة مادية ومعنوية ـ التى تؤثر فى الماضى والحاضر ، وتؤثر فى الافراد ، وفيهـا تستقر رواسب المدنية • فعلى المؤرخ أن يكتشف تلك التعابير التى تتناســب مع كل مرحلة تاريخية • وبذلك يصبح « دلتـــاي » من القائلين بالنســـبية التاريخية •

---

(٣٢) Mandelbaum, M., The Problems of Historical Knowledge New York, 1938, pp. 60-62.

يعتبر « دلتاي » « علم الاجتماع » و « فلسفة التاريخ » قد وقعا فى نفس الخطأ • فكلاهما يحاولان التغلغل ماوراء حقائق التاريخ ليتوصلا الى مبدأ واحد ـ يسيطر على كل شيء ـ الى درجة يصبح بها ذلك المبدأ عديم الجدوى والفائدة ـ انه يعبر عن ميتافيزيقية « أوكست كونت » وميتافيزيقية « الحركة الجرمانية » • ففلسفة التاريخ وعلم الاجتماع يبحثان عن مبدأ يفسر كل الحوادث والوقائع التاريخية ـ أو عن هدف مسيطر • يرفض « دلتاي » الاعتراف بوجود هدف فوق البشر ـ سواء كان « روحا عالية » أو « فكرة مطلقة » • ويقول بعدم وجود هدف آخر فى التاريخ ـ غير الهدف البشرى الذى هو العامل التاريخى الواقعى • ولايوجد هدف شامل يؤلف « معنى الحياة » ـ فالمعنى بالنسبة له هو تلك الوحدة التى تعتبر جوهر الحياة ـ والحياة ليست متابعة متواصلة لهدف واحد •

ويتطلع « علم الاجتماع » الوضعى الى قوة دافعة واحدة ـ أو ـ الى قانون واحد يفسر حركة المجتمع وتصيره ـ ولكنه يواجه حقائق معقدة ومركبة ، هى من اختصاص علوم متعددة ، يجب أن تسهم معه فى معرفة تلك القوى والقوانين • حتى قال « دلتاي » بعدم امكانية قيام « علم الاجتماع » •

ب ـ ماكس فيبر : Max Weber (نظرية الفهم) :

كان « ماكس فيبر » متأثرا « بالمدرسة التاريخية الالمانية » وما يستقر وراءها من تناقض بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية فى مناهج البحث • فدعا الى منهج ذاتى « (Verstehen) » وكان المعنى الاول لهذا المنهج هو محاولة تفسير الظواهر البشرية بمضامينها التاريخية ـ أى باعتبار كل ظاهرة وحدة ـ قبل الفكرة القائلة بوجود مقولات شاملة ومجردة • وانتقد بشدة الرأى القائل بأن الهدف من منهج البحث العلمى هو الوصول الى صورة كاملة وحقيقية عن الظواهر • وقال بأن كل المعرفة التجريبية القائمة على الخبرة معرفة مجردة فى طبيعتها ، فلا يمكن أن تشمل كل الحقائق ، وأظهر العلاقة بين الحقائق ومصالح القائم بالبحث • وقال بوجود عنصر « النسبية »

فى العلوم سواء كانت طبيعية أم اجتماعية • وأكد بأن منهج البحث الذاتى لايشوه الحقائق ، ولايؤثر فى الموضوعية • وعلى هذا الاساس أراد « ماكس فيبر » أن يضع أسس Verstehen de Sociologie ـ أى منهج البحث الذاتى الذى يعبر عن أراء الناس وأفكارهم ، وعن المعانى التى يضيفونها على المواضيع والاشياء ، وعن أنماط سلوكهم ودوافعهم • حاول « ماكس فيبر » أن يملأ الفراغ بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ـ لأن الاتجاه كان يريد دراسة وتحليل السلوك البشرى بمنهج العلوم الطبيعية •(٣٣)

قال « فيبر » أن المفاهيم العلمية عبارة عن أفكار مجردة لاتحيط بالواقع احاطة تامة وكاملة ، لان للمعنى جانبين هما : (١) المعنى الواقعى الفعلى كما يبدو للفرد القائم بالعمل و (٢) المعنى الذاتى الذى يدرك بصورة نظرية • وقد سمى « فيبر » المعنى الثانى ـ المعنى الكامل ـ او ـ المثالى ـ الذى يتميز بكونه مفهوما مجردا وعاما ، الا انه يفيد فى معرفة الواقع المنفرد الوحيد • فلم يبحث « فيبر » الصلة بين القائم بالعمل والوضعية التى تحيط به وأوضح « فيبر » بأن « الطريقة العقلية » تعين علماء الاجتماع فى دراسة السلوك البشرى ، لان الأعمال التى يقوم بها الانسان أعمال عقلية •

ويعرف « فيبر » العمل العقلى اذا كان :

(١) موجها نحو هدف واضح وغير غامض ، أو نحو مجموعة من القيم الموضوعية والمبنية بصورة واضحة ومنطقية •

(٢) اختيار الوسائل اختيارا يتفق مع خير ما لدينا من معرفة لغرض تحقيق الهدف •

يصبح علم الاجتماع ـ العلم الذى يحاول أن يفهم العمل الاجتماعى فهما تفسيريا يعلل فيه الأسباب والنتائج • ويكون العمل اجتماعيا بفضل المعنى الذاتى الذى يضيفه القائم بالعمل حيث يأخذ بنظر الاعتبار سلوك الآخرين الذين يؤثرون فى العمل •

---

(٣٣)

Parsons, T., Structure of Social Action; Chap., xvi. Parsons, T., Max Weber, The Theory of Social And Economic Organization, Oxford University Press, New York, pp. 8-29.

لايمكن التفريق بين العمل ذى المعنى والاعمال المنعكسة التى لاترتبط بأى معنى • كما ان كثيرا من أنواع السلوك التقليدى عبارة عن عمل حدى يتأرجح بين المعنيين ـ الحقيقى والمجرد ـ •

يلزم التأكد من تفسير معنى الاعمال والظواهر ووضع الانسان نفسه بصورة تصورية خيالية موضع القائم بالعمل ، ليسهم معه فى خبرته مساهمة مبنية على التعاطف والتجاذب والمشاركة الوجدانية • وقسم نظرية « الفهم » الى قسمين : منطقية وانفعالية عاطفية ، فالقسم الاول متوافر فى الرياضيات ، والقسم الثانى مفعم بالفن ومعتمد على المشاركة الوجدانية ـ وقائم على تفهم الدوافع والحوافز التى تحفز الانسان للعمل •

حاول « فيبر » أن يجمع بين وجهتى النظر « الماركسية » و « النيتشية» فى مناقشته للعلاقة بين الافكار والوجود الاجتماعى • قال « فيبر » أن الافكار تبقى معزولة من كل قوة فى التاريخ اذا لم تتحد بالمصالح المادية ، وأن أهمية تلك الافكار تظهر فى التأثيرات النفسية التى تحدثها • ولكنه على النقيض من « ماركس » و « نيتشه » رفض أن يعتبر الافكار مجردانعكاسات للمصالح النفسية والمادية • وأكد على وجود حقول كثيرة : كالسياسية والنفسية والاقتصادية والدينية التى تحدث بينها منازعات بين الافكار والمصالح ، أو بين حقل وآخر ، او بين دافع داخلى ومطلب خارجى • وقال « فيبر » بان العلاقة بين الافكار والمصالح « علاقة اختيارية » وليس هى مجرد انعكاس، او تعبير لها • ولم ير « فيبر » أية صلة بين المصالح والاصل الاجتماعى (أو الطبقة أو الفئة) الذى ينتمى اليه الانسان ، ومضمون الفكرة ومحتواها • ليست هنالك صلة مؤسسة سلفا بين مضمون الفكرة ومصالح الذين يقولون بها •(٣٤)

---

(٣٤)

Gerth, H. H., And C. Wr, Ght Mills, From Max weber, Essays in Sociolocy, New York, Oxford University Press, 1946.

Abel, Theodore F., Systematic Sociology in Germany, New York, Columbia University press, 1929.

Barnes, H. E., An Introduction To The History of Sociology Chicago, The University of Chicago Press, 1947. pp. 287-304.

فيجب ان نبحث فى علم الاجتماع عن الاسباب والدوافع والعلل التى تكمن وراء الافعال والاعمال • فلكل عمل خطة تشتمل على هذه المعادلة : دوافع ورغبات ـ وسائل تناسب تلك الدوافع وتعمل على تحقيق تلك الرغبات ـ الهدف (أو الغرض) • بموجب ذلك نعتبر كل عمل يقوم به الانسان ذا دافع ، وله وسيلة معينة ، يحاول بها أن يحقق هدفا معينا • فليست هنالك أعمال لا شعورية ، وليست هناك جبرية وحتمية •

نخلص من ذلك الى أن نقطة الانطلاق فى منهج البحث الخاص بنظرية « الفهم » Verstehen هى وجهة النظر الذاتية ، التى تنقد بشدة وجهة النظر التأريخية • واعتبر المقولات الشاملة النظرية جوهرية للبرهنة على العلاقات السببية فى الحقول البشرية والحضارية كما هو الحال فى العلوم الطبيعية[٣٥] •

ويشتمل البرهان على « العلاقة السببية » على ثلاث خطوات هى :ـ

١ ـ وصف الظاهرة وتوضيحها باطار عقلى ـ الذى هو فى جوهر تجريدى واختيارى بالنسبة للحقائق التى هى موضع البحث •

٢ ـ وضع كافة النصوص والشروح المفصلة عن الحقائق وضمها فى مقولات نظرية شاملة تجعل من الممكن القيام بالموازنة والمقارنة •

٣ ـ مقارنة تلك الظواهر والحقائق التى تم وصفها وتحليلها بظواهر وحقائق أخرى ، سواء كانت حقيقية أو خيالية ، والتى قد تختلف فيها الحقائق ، ولكن الاصناف العامة الشاملة تكون واحدة •

فعلى علماء الاجتماع أن يعملوا على ايجاد « نمط قياسى » بناء مجرى عقلى للعمل ـ يكون كنموذج ، يستخدمه علماء الاجتماع للمقارنة والموازنة ليتفهموا العوامل اللا عقلية التى توءثر فى العمل • وبفضل هذه المقارنة يتعرف علماء الاجتماع على الانحراف والشطط من المجرى العقلى للعمل • وقد دعا هذا التكوين النظرى المجرد للعمل "Ideal Type" ـ او ـ

---

(٣٥)

Parsons, T., Max Weber: The Theory of Social and Economic organization, New York, Oxford University Press, 1447. Chap. II, pp. 8-30.

« النمط القياسى » • فهو نمط عام ومجرد ـ لايصف مجرى معينا وخاصا للعمل ، وانما مجرى قياسيا مثاليا ـ يفترض وجود بعض الاهداف والتوجيه• يصف هذا « النمط القياسى » بصورة موضوعية المجرى الممكن للعمل ، ويتضمن كل الخصائص الضرورية للعمل ، وكل العوامل والقيم والعناصر المتغيرة ، يستطيع علماء الاجتماع « بالنمط القياسى » أن يتعرفوا ويفهموا على العوامل اللاعقلية التى تؤثر فى العمل وتخلق الانحراف والشطط عن المجرى المنطقى العقلى للعمل (٣٦) •

٥ ـ فينومينولوجية (باريتو) : "Pareto" (١٨٤٨ ـ ١٩٢٣)

انتقد « باريتو » كلا من « أوكست كونت » و « سبنسر » لمحاولتهما الاخذ بمنهج البحث الخاص بالعلوم الطبيعية ، ولمقارنتهما بين الكائن العضوى والكائن الاجتماعى • وصرح « باريتو » استحالة التغلغل فى المعرفة الكاملة للظواهر الكاملة بكل تفاصيلها • ويقول بأن تكوين المفاهيم ، والاصول الى الأراء المجردة فى العلوم الاجتماعية يتم بالتحليل وليس بالتجربة • وبين « باريتو » بأن الظواهر الاجتماعية نقطة التقاء لعدة قوانين مختلفة ، بحيث أن التفسير العلمى الكامل لتلك الظواهر لا يمكن أن يكون بقانون واحد ، وان ذلك التفسير لا يقدم لنا الا صورة جزئية •

وعرف « باريتو » العمل المنطقى بالجمع بين الاهداف الموضوعية والاهداف الذاتية ، والتطابق بين الوسائل والاهداف • وقال بأن « الهدف الذاتى » عبارة عن مايأمله القائم بالعمل من وضعية تتحقق فيها رغباته ، ويفترض بأن تكون تلك الرغبات موضوعا لعمله • أما الهدف الموضوعى فيجب أن يدخل فى حيز الملاحظة والخبرة وقد أهتم « باريتو » بالرواسب Residuals تلك التى لاتطابق المعيار العلمى •

وقد وصف « الرواسب » بأنها غير منطقية ـ لانها عاطفية وانفعالية وغريزية • وبالرغم من اختلاف قوة هذه الرواسب من زمن الى آخر ، ومن فئة اجتماعية الى اخرى ، فأنها عناصر ثابتة فى أى نظام اجتماعى • مثال ذلك

---

(٣٦) نفس المصدر ، ص (٨ ـ ٣٠) •

وصف بعض الايام بالسعادة وبعض الايام الاخرى بالبؤس والشقاء ، ووصف بعض الاشجار بأنها تشفى من بعض الامراض دون أن يكون لهذا الاعتقاد أى أساس تجريبى ومنطقى • ويلعب السحر فى هذه الرواسب دورا مهما • وكثيرا مانتقدم بعبارات وجمل لحجب حقائق الرواسب • فالرواسب هى الاحاسيس والمشاعر التى تعتبر قوة مصممة فى التوازن الاجتماعى • ولم يكتف « باريتو » بالرواسب ـ بل أهتم بالاسباب التى تدعو الناس لان يتبدلوا ويتغيروا ـ و التى دعاها المشتقات "Derivations" وخير مثال على تبادل العلاقات بين الرواسب والمشتقات هى الاخبار التى تنشرها الصحف ،فبالرغم من أنها ليست منطقية فأنها تؤثر فى مشاعر الناس وعواطفهم • ولما كان الراسب تعبيرا عن عاطفة أو شعور فلا يمكن ان يكون ذا صلة بالحقائق • وعندما تصطدم « الرواسب » بالواقع فأن من واجب « المشتقات » ان تجد التبريرات المناسبة لتعليل انحرافها عن المنطق(٣٧) • وقال « بارينو » بأن المجتمع لايمكن أن يقوم بالعقل وحده(٣٧) •

٦ ـ فينومينولوجية « تونيز » (Tonnies) :

حاول « تونيز » أن يجعل من « علم الاجتماع علما مجردا ـ مستقلا عن البحوث التجريبية والتطبيقات ـ مؤلفا من مفاهيم مجردة ـ فأقامه على فكرتين جوهريتين هما « الجماعة » و « المجتمع » ، ودعاهما المقولات الاساسية لعلم الاجتماع المجرد • أخذ « تونيز » نظريته من مصدرين مهمين هما : العلوم الاجتماعية فى القرن التاسع وعدد من الفلاسفة • حاول أن يوجد علم اجتماع تحليلى على النقيض من علم الاجتماع الانسكلوبيدى العام ، بنظريته عن « الجماعة » و « المجتمع » •

ففى الفترة التى بدأ بنظريته كانت العلوم الاجتماعية فى المانيا قد

---

(٣٧)

Parsons, T., The Structure of social Action' Glencoe, Il., The Free Press, 1949, pp. 178-293.

Ginsberg, Reason and Reason in Society, Harvard University Press, 1948, pp. 84-104.

تأثرت بمنهج البحث فى العلوم الطبيعية ـ وخاصة بالفلسفة الوضعية ونظرية التطور وبأراء « سبنسر » و « جون ستيوارت مل » و « كارل ماركس » وفوق الجميع تأثر بالفيلسوف « هوبز » •

يعتقد « تونيز » بأن « العوامل النفسية » هى التى توءلف القواعد الاساسية التى يقوم عليها « المجتمع و « الجماعة » • واتخذ من « الارادة » مفتاحا لتفسير الظواهر الاجتماعية • وبذلك يتفق مع « شوبنهور » بقوله « العالم كارادة » ومع « هوبز » الذى يفسر كل الوضعيات الاجتماعية بالعقل والارادة البشرية • وقد قسم « الارادة » الى قسمين هما : « الارادة العضوية» و « الارادة الانعكاسية التفكيرية » فالاراد ةالعضوية هى المحفز والدافع للسلوك ، وهى مصدر كل خلق وتكوين ، تشمل التفكير والمصير • وهى مصدر الطاقة التى تعمل على تغيير الحياة وعلى تحسينها • وتتجلى هذه « الارادة » فى السرور والعادة والذاكرة •

أما « الارادة التفكيرية » فهى الناتجة من التفكير ـ فيها تسيطر فكرة الهدف ـ فتدير كل الافكار والانعكاسات ، فالتفكير يوجه الارادة العضوية ويوجه الانفعالات المنبثقة عن الارادة العضوية • فالتفكير لا يخلق الدوافع وانما يوجهها ويرشدها • تصبح « الارادة التفكيرية » بدون معنى ، اذا لم تتصل بالارادة العضوية ، توجه طاقاتها نحو هدف أو موضوع معين • وتتم سيطرة الارادة التفكيرية على الارادة العضوية بطريقة اختيار الاهداف والغايات وتصنيفها (الى عامة وخاصة) وتكون من وظيفة التفكير التوازن بين الغاية والوسيلة • ولايتم الا بتدخل عامل اللذة والألم • وتتحول بذلك مظاهر الحياة الفعالة الى مجرد منهاج قائم على الحساب والتخمين والقياس •

تتعارض الارادتان ـ العضويةوالتفكيرية ـ بصورة طبيعية ـلانالعضوية تعبر عن الماضى وتشمل التفكيرية وظيفة تتحقق فى المستقبل •

نستنتج من أقوال « تونيز » بان الارادة التفكيرية ليست واقعا حقيقيا للحياة الانسانية ـ فالارادة العضوية هى « الحدس » و « الوجدان » و « العبقرية » • فالارادة العضوية أوجدت الجماعة والارادة التفكيرية أوجدت المجتمع •

فالجماعة ـ مفهوم رومانتيكى عاطفى قائم على الانفعال المتفجر عن الارادة العضوية ، منها تنبثق الاخلاق ، وروابط الأخوة والصداقة • تصبح الارادة الجماعية مرادفة للفضيلة • أما المجتمع فيسوده التنافس ويكون كل فرد غريبا عن الآخر ، يقيس علاقاته بالدراهم ـ ويكون التاجر ملكا ، يتسلط على المجتمع • ويعرض الحساب والتخمين القيم الخلقية للدمار • ويقول « تونيز » بأن المدنية العظيمة والمجتمع يمثلان الفساد والانحلال والموت للشعب(٣٨) •

٧ ـ فينومينولوجية « برغسون » (١٨٥٩ ـ ١٩٤١)(٣٩) :

أكد « برغسون » على وجود عالمين هما : (١) عالم المادة و (٢) عالم الروح • وقال بامكانية تطبيق منهج البحث العلمى على الظواهر المادية فقط ـ أما عالم الروح ـ فلايمكن الافادة من منهج البحث العلمى ، وانما يمكن تطبيق الطرق الفلسفية والميتافيزيقية ـ فوجود الروح مستقل عن العلم الوضعى ـ لان الروح دافع تلقائى ، ذاتى ، ومطلق ـ وأن طريقة الاستبطان وحدها تستطيع أن تتغلغل فى عالم الروح • فعالم المادة ـ مجال الجبرية ، وعالم الروح مجاله الحرية • فالروح ، على النقيض من المادة ـ مستقلة ـ وتاريخ الروح فى التاريخ ـ هو تاريخ الفتح التقدمى للحرية •

تعتبر « فينومينولوجية » « برغسون » رجوعا الى « اللا عقلية » التى تميز الفلسفة المثالية فى المرحلة المعاصرة ، وتعنى رفضا كاملا للمعرفة العقلية ، المنطقية ، وقطعا لكل صلة بالعلم • ينكر « برغسون » القوانين العلمية ، والفكر المنطقى العقلى • يعتقد « برغسون » بأن منهج البحث العلمى لا يمكن أن يتغلغل فى صميم الواقع • فالعلم لا يتوصل الا الى قيمة

---

(٣٨)

Leif, J., La Sociologie De Tonnies, Press Universitaires de France, 1946, pp. 13-68.

Tonnies, F., Communaute Et Société, Press Universitaires de France, 1944.

(٣٩) من أشهر كتبه هى : « التطور الخالق » و « ينبوعا الاخلاق والدين » •

تجريبية عملية ولـكنه لا يكشف الحقيقة • دعا « برغسون » الى « الحدس » أو « اللقانة » منهجا لادراك الواقع ومعرفته •

قال « برغسون » بالديمومة ((Durée) ـ المفهوم الروحى المتيافيزيقى ـ واعتبره السبب الاول لكل شىء فى الوجود • فالمادة ، والزمان ، والحركـة لاتمثل الا اشكالا مختلفة ـ للديمومة ـ •

وليست « الديمومة » فى رأى « برغســـون » غير « الله » • فالحيـاة النفسية ـ تلقائية وهى انبعاث من الباطن وخلـــق مستمر أو « ديمومة » • « الديمومة » هى صفة « التعاقب » التى تحدث فى الروح(٤٠) •

قال « برغسون » بوجود « الوثبة » او « القوة الحيوية » التى تدفعنـــا للسير قدما ، ولكننا لاندرى الى أين تسير تلك القوة ، ولاندرى ماهى فاعلـة غدا • فنحن نكيف أنفسنا لها فى لحظةٍ معينة ، وبقدر ما نستطيع ، وبمعنى آخر اننا نثق بتلك القوة دون أن نحاول معرفتها والكشف عنها فى المستقبل • ويوءكد « برغسون » بأن مسيرة التاريخ المدفوعة « بالقوة الحيوية » لايوجد لها هدف معين ومعلوم • وانتقد « العقل » نقدا لاذعا ـ واتهمه بتشويه العالم • وقال ان الحركة والاندفاع منبثقان من الدوافع الاولية التى تكمن وراء العقل ـ وهى دوافع عمياء • ولهذا فلم يثق « برغسون » بالطريقة العلمية • رفض « برغسون » نظرية التطور العلمية وقال « بالتطور الخالق » Evolution Creatrice الذى يتخذ من « القوة الحيوية » قاعدة له • (٤١)

---

(٤٠) يعرّف « برغسون » الديمومه بقوله : « ان الديمومة هى التقدم المستمر للماضى الذى ينخر فى المستقبل ويتضخم كلما تقدم • ولما كان الماضى ينمو بدون انقطاع ، وعلى نحو غير محدود فانه يحتفظ ببقائه • » راجع « التطـــور الخالق » ترجمة محمود محمـــد قاسم ونجيب بلدى ، ص (١٤) •

(٤١)

Bergson Henri, L'Evolution Creatrice, Press Universitatre de France, Paris, 1946, pp. 1-83.

Bergson, Henri, Les Deux Sources de la Morale et le la Religion, Press Universitaire de France, Paris, 1946.

Bergson, Essai Sur Les Données Immédiate de la Conscionce.

٨ ـ فينومينولوجية « غرفتش » (Gurvitch) :

يعتقد « غرفتش » بأن منهـــج البحث فى علـم الاجتماع يقوم على التجريبية المتطرفة القائمة على الحدس (اللقانة) Un Emprisime Radical a la Base Intuitioniste ويرى بأن الحقائق الاجتماعية أشـياء Choses خارجة عن ضمير الفرد ـ وان الوجدان الجماعى متفوق ومتعال على الوجدان الفردى .

اذ يدرس علم الاجتماع الروابط الاساسية بين « أنا » و « الآخرين » و « نحن » ـ ويركز اهتمامه على الترابط الوشيج فى جوهر الوجدانات . وأكد بأن علم الاجتماع يعمل على اقامة الروابط والعلاقات[٤٢] بين « أنا » و « الآخرين » و « نحن » هذه الاعمدة الثلاثة التى يمكن فصل أحدها عن الآخر .[٤٣] وقد عرف العلاقة بين هذه الاعمدة الثلاثة تعريفا عضويـا ، وشبهها بعلاقة « أنا » بالجسم . فالمجتمع عبارة عن « أنا » وهو بنفس الوقت « شيء » أيضا وبموجب ذلك يصبح علم الاجتماع دراسة موضوعية من جهة باعتبار حقائقه « اشياء » مستقلة ، ومنعزلة ، وخارجة عن ضمائر الافراد ، وتمارس نفوذا وسيطرة عليها ، وتتميز بالالزام والقدسية والاستمرارية ، كما أنها دراسة « فينومينولوجية » لان حقائقه متصلة اتصالا وثيقا بوجدانات الافراد من جهة أخرى . فالواقع الاجتماعى يسهم فى تكـوين الافـــراد وخلق وجودهم . ولهذا أصبح تعدد الفئات واختلافها فى المجتمع ، يتطابق مع عدد مختلف من انواع الوجود ، وعدد مختلف من انواع الترابـــط الاجتماعى ـ وتسمى وجهة النظر هـــذه (Pluralisme) ـ أى ـ الجمعية ـ .

---

(٤٢) Cahiers Internationaux de Sociologie, 1946, "Georges Gurvitch, La Vocation De La Sociolocie", pp. 3-22.

(٤٣) راجع المقالات التى كتبها « غرفتش » فى المجلات التالية :
"Philosophical Review", Nouember, 1943 No. 52. pp. 533-552
"Is The Antithesis of Moral Man and Immoral Society True".
"Twentieth Century Sociology", Chap. x, pp. 287.

يأخذ « علم الاجتماع » بنظر الاعتبار اذن التحليل الذى تقدم به كل من « هوسرل »(٤٤) و « هيدغر »(٤٥) عن الروابط والعلاقات القائمة بين وجدانات الناس • والتى تظهر كصلات مباشرة ، حية ، وواضحة • تصبح اذن « الخبرة الفينومينولوجية » المتكاملة والمباشرة أساسا لعلم الاجتماع • ويذهب « غرفتش » الى القول بأن علم الاجتماع الخاص بالقانون (اجتماعية القانون) حقل من علم الاجتماع الخاص بالروح [اجتماعية الروح] فمصدر علم الاجتماع وفلسفة القانون هى « الروح » لان القيم والاراء هى التى توحى بالقانون ـ فعلم الاجتماع يبحث فى وظيفة الواقع الاجتماعى ، وتدرس فلسفة القانون قانونية المواضيع باتصالها بالروح • فلا يمكن اذن فصل فلسفة القانون عن علم الاجتماع القانونى ـ فبدونها يكون علم الاجتماع القانونى نوعا من « العقائدية العقلية » "Rationalisme Dogmatique" فالخبرة القانونية المباشرة تتوسط بين الخبرة الخلقية والخبرة المنطقية ، وبين الخبرة الروحية والخبرة الحسية ، وتتكون من أعمال جماعية ، ومن وضعيات جماعية حسية ـ

---

(٤٤) « هرسرل » Husserl (١٨٥٩ ـ ١٩٣٩) ـ يعرف « الفينومينولوجيا » بأنها العلم الفلسفى الذى يبحث فى ظواهر الوجدان وعلاقاته بالمواضيع ـ ولا يعنى اصطلاح الوجدان ـ الوجدان الاجتماعى الحقيقى ، وليس الوجدان الفردى الحقيقى ـ الفرد المفكر ـ وانما « الوجدان المتعالى » « المتفوق » « المجرد » « المنعزل » عن الفرد وعن فعالياته النفسية ، وعن المحيط الاجتماعى • ولا يعنى بالمواضيع الاشياء « الحقيقية » « الثابتة » وانعكاساتها فى الوجدان وانما المواضيع المثالية الغريبة عن العالم المادى ـ عالم الاشياء والمواضيع المعلومة الواضحة •

(٤٥) « هيدغر Heidegger » (١٨٨٩ ـ) تلميذ « هوسرل » وكلاهما قد أسهما فى التيار الفلسفى الوجودى ، اللذين افادا كثيرا من « الفينومينولوجيا » بعد اجراء بعض التعديلات عليه ليلائم الميتافيزيقيا ويقول « هيدغر » بأن أول خاصية ماهوية للواقع الانسانى هو كونه بالضرورة « وجود فى العالم » وأن وجود العالم متضمن فى الواقع الانسانى باعتباره الامكانية الاساسية لهذا الواقع • هذه الامكانية هى ما يعبر عنه « هيدغر » بالهم • فالوجود الانسانى موجود بقدر ما هو مهتم بالعالم • والعالم هو المقابل الموضوعى لامكانيات الوجود الانسانى فى مجموعها •

تحقق قيما وضعية[٤٦] .

هذا هو علم لاجتماع الفينومينولوجى الذى ينطلق فى بحوثه من تحليل الفرد الاجتماعى للكشف عن المجتمع ـ أى يحاول اتخاذ السلوك الفردى الاجتماعى أساسا لدراسة المجتمع ، فيركز اهتمامه على العلاقات والروابط الداخلية ـ التى هى أساس قيام المجتمع ـ تلك الروابط التى توحد تلقائيا الروح بالروح . فليست هنالك علاقات علية (سببية) ـ وانما هنالك علاقات الادراك والتحفيز ـ كالحب ، والنزاع التى تسبق الميول الاساسية كالشعور والحاجات التى تتجسد فى كائن متعال ، سام ومتفوق .

فيجب أن نتجاوز حدود الاحكام والمدركات ، ونتعدى حدود الخبرة الحسية الى الخبرة الروحية ـ وهو مايدعى عادة « الاختزال الفينومينولوجى "Réduction Phenomenologique" عند « هوسرل » ـ أى أن نضع العالم « بين قوسين » أى فى تعليق الحكم على العالم الواقعى الذى نعيش فيه ، والامتناع منهجيا عن اصدار أحكام وجودية تتعلق به ، اذ ذاك يبدو لنا العالم بوصفه ظاهرة مباشرة للشعور الخالص .

ويكون المنهاج « الفينومينولوجى » قد وصف بنية الشعور الخالص فى علاقاته بموضوعات العالم والوصول الى معنى الظواهر بارجاعها البنية المقابلة لها من الشعور الخالص[٤٧] .

فا « لفينومينولوجيا » تتجاوز العمل الانعكاسى الحدسى فى المعطيات لتتغاغل فى صميم المباشر نفسه . هذه الخبرة « للاختزال الفينومينولوجى » التى لايصعب على الفيلسوف تجسيدها ، توجد فعلا فى حالة خفية غير ظاهرة .

---

(٤٦) Gurviteh, G., Elements de Sociologie Juridique, Paris, Aubier, 1940, pp. 265-66.

(٤٧) راجع : نظرية فى الانفعالات ، ترجمة الدكتور سامى محمود وعلي وعبدالسلام القفاش ، دار المعارف بمصر ، ص ، ٧٣ .

يقول « شيللر » [٤٨] ان نقطة الانطلاق فى المنهاج الفينومينولوجى هى المعطيات وليست الاحكام ، وبذلك يضمن لنا هذا المنهاج موضوعية عظيمة فى البحث ، على العكس من العلم الذى يبنى خبرته على سلسلة من الملاحظات الاستقرائية ، نجد أن « الفينومينولوجيا » تعرف الخبرة بتيار ـ كما يقول « هنرى برغسون » ـ وهى الخبرة المباشرة بكل ماتزخر فيه من خصب وثروة ، والتى تمسك بالمعطى نفسه دون اللجوء الى رموز ، وتقيم التطابق بين Signifiant , Signifié وبين الهدف والمعطى ، حتى تنفذ الى الماهية نفسها ـ الى الجوهر نفسه ـ يقول « غرفتش » هذا هو مجال الخبرة البديهية والمعطيات الكثيرة غير القابلة للاختزال ، المؤسسة على خبرة متكاملة للمباشر .

ان الحصول على وعى بهذه الخبرة يتطلب جهدا عقليا صعبا ، يغير الاتجاه الطبيعى للتفكير ، الذى يميل عادة الى التفريق بين الموضوع والذات ، بين المعرفة بالشىء والمعرفة بالفرد . يجب اذن أن نتعدى مجالات الاحكام والمفاهيم والمدركات لنصل الى المجال الحيادى للتيار الحيوى (حيادى لانه يوحد صنفين متعادلين هما : الخبرة الحسية والخبرة الروحية) . هذا هو « الاختزال الفينومينولوجى » الذى يرجع الى ذلك التيار الحيوى ويدرك لحظتين هما : (١) التنقية « Epuration » التى بها نعلق احكامنا ومعتقداتنا . وكل فرضية فلسفية أو علمية ، أو بالاحرى التحرر من كل وجهة نظر سالفة ، أو بكلمة مختصرة تحاشى كل تفسير سالف للظواهر الحيوية . وبعد ان تتم عملية « التعليق » هذه لكل تصور ، ومفهوم وكل بنية أو تركيب سالف للروح ، تعود الخبرة المتكاملة اعادتها فى شكل جديد ، كما يقول « هوسرل » : « ماسبق ان وضعناه معلقا يعاد بناوءه من جديد فى مجال البحوث الفينومينولوجية » .

(٢) الانعكاس أو القلب : Inversion يكون اسهامنا الشخصى

---

(٤٨) شيللر (١٨٧٤ ـ ١٩٢٨) يعتقد بوجود قيم خالدة ـ كان متأثرا بالفينومينولوجيا والمدرسة التاريخية . راجع كتاب :

Mandelbaum M., The Probuem of Historical Knowledge, New York, 1936, pp. 147-155.

الذاتى بمواضيع المعرفة معلقا ، فيجب ان نجذب الفكر الى اتجاه معاكس • وهذه هى فى الواقع الخطوة الحاسمة التى هى فى صلب الفينومينولوجيا التى تتجاوز بعمل الانعكاس الحدسى على المعطيات فتجعلنا نتغلغل فى المباشر نفسه • هذه هى خبرة « الاختزال الفينومينولوجى » •

من الممكن تلخيص النقاط الرئيسة للفينومينولوجيا التى تتخذ من هذه الخبرة المباشرة أساسا للبحث بمايلى :

١ ـ من المفروض أن تكون تلك الخبرة روحية ـ لتقودنا الى علم اجتماع الروح •

٢ ـ توجد انواع مختلفة من الخبرة الروحية والخبرات غير القابلة للاختزال (كالقيم الخلقية ، والافكار المنطقية ، والعواطف) خصبة وغنية • بفضل المراحل التاريخية التى مرت بها المدنيات والحضارات •

٣ ـ ان موضوعية المعطيات المباشرة لتلك الخبرات ، هى التى تشمل كل اللامتناهيات غير القابلة للاختزال التى تمثلها •

٤ ـ يصبح من المؤكد وجود هذه الخبرة المتكاملة يكمن وراء الخبرة العلمية والعادية • فهى التى تحرر الفيلسوف من صعوبة التحقيق الملقاة على عاتقه ، وتتوصل الى تيار الحياة فى عنفوانه •

٥ ـ ان هذه الخبرة المباشرة ليست معرفة ، اذ تبقى معقّدة واصطناعية اكثر من المعطى ـ والتى تظل فى مجال التجربة والشعور •

٦ ـ يمكن ان تكون الخبرة « الفينومينولوجية » جماعية Collective اجتماعية Sociale وفردية أيضا • ولا يمكن ادراك بعض الآراء أو القيم الا فى اتحادها وتآلفها ، وكذلك أنواع الحدس الجماعية (الجمالية ، والمنطقية ، والخلقية : فالوجدان الخلقى مفتوح فى جوهره للاسهام فى تيار الخبرات الجماعية ـ التى تتجاوز الفرد ـ مثل الخبرة القانونية التى ماهى الا موضوع

جماعى ، فالخبرة الفردية تستثنى بطبيعة القانون نفسه) • [٤٩]

٩ ـ الفينوميولوجيا والوجودية :

اذا حاولنا أن نوصل « الفينومينولوجيا » التى جاء بها « هيغل » با « لفينومينولوجيا » التى دعا اليها « هوسرل » نستطيع ان نكشف الصلة بالتيار الوجودى الفلسفى ، الذى ينتعش اليوم فى فرنسا والمانيا ـ واوربا الغربية ـ بصورة عامة • فالوجودية فلسفة مثالية ذاتية تحاول تشويه « الوجدان الاجتماعى » وتزييفه ،وتقف موقفا معاديا من المنظمات والاتحادات والنقابات العمالية • وقد كان للفينومينولوجيا التى جاء بها « هوسرل » الفضل فى اعداد الاسس الفلسفية للوجودية •

« وقد توسل هوسرل الى غرضه باصطناع فكرة القصد • وقال : (ان الظاهرة موضوع معروف ، وانها فى نفس الوقت المعرفة بهذا الموضوع ، أى فعل نفسى ، وهذه الاضافة التى هى « قصد » الى الموضوع ، هى عين طبيعة المعرفة ـ أى ان المعرفة والمعروف متضايفان[٥٠] • ويقول أتباع « الفينومينولوجيا » هذه « بأنه علم بدون مقولات ، وفروض ، ومبادىء ، مستقل عن الخبرة ، وسابق للمفاهيم المنطقية ، يقوم على الوصف والتحليل « للمعطيات المباشرة » فى الوجدان المجرد ، وعلى « الحدس والعقلية » التى تكشف عن جوهر المواضيع المثالية ، أى أن « الفينومينولوجيا » تحاول أن تقيم العلوم الاجتماعية والانسانية على أسس جديدة •

تدرس « الفينومينولوجيا » « الوجدان المطلق » و « الأنا المتعالية » و « التصورات المتفوقة » • وكما يقول « سارتر » ان « الأنا » موضوع يعتمد

---

(٤٩) راجع ما يلى :

Hennion, Françoise, "Le Systeme Sociologique de Georges Gurvitch." Etudes Sociologique", 1947, pp. 1-16.

Dufrenne. M., "Existentialisme et sociologie" Dans Les Cahiers Internationaux de Sociologie, Volume I., pp. 161-171.

(٥٠) يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤ •

عمليا وموضوعيا على موضوع أخر [٥١] ودعا ذلك « تعدى الأنا » •
La Transcendance de L'ego

ان « الفينومينولوجيا » على العكس من الفلسفة الوجودية ، لاتقف عند حدود الوجود نفسه ، وانما تتطلع الى اللحظة التى يجتاز بها الوجدان تلك الحدود ليصل الى المعرفة المطلقة • وفى هذه النقطة بالذات يختلف هيغل مع • "Kierkeggaard" [٥٢] •

وتشترك « الوجودية » فى نقاط عديدة مع فلسفة « شيللنغ » الا أنها اكثر تطرفا فى اليمينية • وتعتبر من التيارات المناهضة للاشتراكية والديمقراطية الموجهة • وتعنى « الوجودية » بالوجود » الحياة الروحية الفردية » وتعارض « الوجود المادى » للكائن و « الحياة الواقعية » الطبيعية والاجتماعية • ولعل من أهم الافكار الرئيسة التى تسيطر على الوجودية هى : الخوف من الموت ، واليأس وغيرها من المظاهر النفسية الباثولوجية • وقد تبنى بعض الكتاب من الامبرياليين الالمان مثل Jaspers , Heiddeggrd هذه الافكار • وتدعى الوجودية اليوم بمفهوم « الحرية » • ويتهمها اعداؤها بأنها تقود الفلسفة الى العدمية الفكرية والخلقية ،وعدم الثقة بالعلم والاخلاق• تدعو « الوجودية » الى حرية الوجدان لذاته • وتعارض بين « الوجود » و « الماهية » معارضة ميتافيزيقية وتقول بأسبقية « الوجود » ـ أى أسبقية الفكرة على المادة • ولا تعترف بحرية أخرى غير التى تدعو اليها الطبقة الوسطى [٥٣] •

هناك عدد من التيارات الوجودية : التيار الذى بدأ به "Kierkeggard"

---

(٥١) Petit Dictionnaire Philosphique, Moscow, 1955, Artcle - "Existentialisme".

(٥٢) Kierkeggaard (١٨١٣ ـ ١٨٥٥) فيلسوف دانماركى يرجع اليه الفضل فى تأسيس الفلسفة الوجودية •

(٥٣) Mikel Dufrenne, "Existentialisme et Sociologie", Cahiers Internationaux, Tome, I, pp. 161-171.

وانتهى الى «نيتشه» ، وتيـــار "Heidekker" , "Jaspers" ، وتيـــار « جبرائيل مارسيل » و « سارتر » • ومع وجود اختلافات بين هذه التيارات الا أنها تجمع الرأى على ضرورة عزل علم الاجتماع عن الواقع الاجتماعى • أى أن الاختلافات الموجودة فى الفلسفة الوجودية لا أهمية لها فى موقفهـا من علم الاجتماع • فعلم الاجتماع يحاول دراسة الاراء والافكار والظواهـر الاجتماعية فى اطاراتها المادية ـ الاجتماعية ، فى واقعها الموضوعى ، بينمـا تريد الوجودية عزلها من كل ارتباط اجتماعى وقصر البحث على الانفعالات الفردية ـ وعلى الاراء الذاتية • وتوءكد « الوجودية » باصرار على « حرية الذات » وعدم وجود واقع لا يشمله الوجدان • تستخدم « الوجودية » مبدأ « القصدية » ـ أى الخاصة الماهوية للشعور من حيث هو اتجاه الى موضوع مابدونه لايكون الشعور شيئا على الاطلاق [٥٤] فكل شعور هـــو شعور بشىء ما ، ولا يمكن تصوره اذا سلب ما هو شعور به ، بل ولن يكون أنذاك شعورا بالعدم لان هذا العدم سيكون موضوع الشعور • «فالقصدية» هى شـرط امكان الاختزال الفينومينولوجى ، حيث يظهـر الموضوع بوصفه ما يقصد اليه ، أى مقابلا مباشرا للشعور • وبمعنى آخر يوجد عائق يحول دون الموضوعية الاجتماعية • تنكر الوجودية انكارا شديدا الفكرة القائلة بأن الحقائق الاجتماعية « أشياء » ، وأن المجتمع خارج ومستقل عن ضمير الفرد ، أو أن الوجدان الجماعى يتعالى ويتفوق على الوجدان الفردى • أى انها ترفض « النظرية الدوركهايمية الاجتماعية » و « النظرية المادية » و « النسبية العلمية »[٥٥] •

---

(٥٤) بول سارتر : نظرية فى الانفعالات ، ص (٨٦) •

(٥٥) « الدوركهابمية » نسبة الى أميل دوركهايم (١٨٥٨ ـ ١٩١٧) الذى اتخذ من الوجدان الجماعى مفتاحا لتفسير كل الظواهر الاجتماعية ـ وجعله نتاجا للفعاليات الجماعية يختلف فى طبيعته وخصائصه عن الوجدان الفردى يتصف بالامرية والقدسية والشمول والاستمرار •

تبدأ احـــدى الخطوات الاساسية فى الفلسفة الوجودية بتحليـــل "Cogito Pré-Reflexif" (٥٦) ـ الذى قامت عليه فينومينولوجية « هوسرل » باعتبار أن الشعور هو دائما شعور بشيء ما والـكوكيتو الهرسرلى يظهر « ألانا » بوصفها أساسا مطلقـــا ومصدرا لـكل معنى ورابطة قصـــدية بالموضوع ـ وهو سر وجود الـكائن فى العالم ، والذى يتحقق من أن الوجدان هو الوجدان بالعالم • توجد علاقة مباشرة بيننا وبين المواضيع والاشياء الموجودة حولنا ، هى فوق العليل المنطقى ـ فالاشياء تقدم لنا ونحن نقدم لها ، حتى تظهر فكرة الادراك • وهذه هى طريقة الفهم والادراك • ولـكن يمكن النظر لـكل واقع من زاويتين هما : زاوية المعرفة المباشرة وزاوية المعرفة الانعكاسية ـ أى الحية بواسطة ذات معلومة تكشف عن نفسها ، فى بنية وجودية ، أو انها تعرف كموضوع متميز ، غريب • ومن الضرورى اذن معرفة الانتقال من زاوية الى أخرى • ولنضرب مثالا على ذلك جســـم الانسان : لانه يكون مرة موضوعا للمعرفة ومرة أخرى وسيلة من وسائل المعرفة • فمن الممكن أن يكون الجسم موضوعا لدراسات فسلجية تأخذ بنظر الاعتبـــار وظائف الاعضاء • وأخرى لدراسة تهتم بكلية الجســـم وبالوظائف التى ينجزها ككل : أى دراسة الظواهر ـ الحية ـ الممزوجة بالوجدان والوعى وبكل عمل وحركة تقوم بها الذات ـ فمحاولتنا لتحليل أنواع السلوك الاولى ـ كالادراك والحاجة والعواطف ـ تكشف لنا الظواهر النفسية للجسم ، ولا يتطلب القيام بذلك الى طرق بحث جديدة ـ وانما الى نهج بحث نفسى ـ فسلجى • موضوعى •

يفيدنا هذا المثال فى دراسة الروابط التى تربط الفرد بالمجتمع •

---

(٥٦) الفكرة التى تستمد الواقع من وجود الفكر الحقيقى ـ أى واقع الروح ـ باعتبارها ماهية الفرد وجوهره •

فكما أن الجسم بعلاقته فى « انا » يشبه علاقة الفرد بالمجتمع ـ فكذلك يكون الجسم مرة « أنا » ومرة أخرى « الشيء » ـ ويكون المجتمع مرة « أنا » ومرة أخرى « الشيء » خارج عن « أنا » • فالواقع الاجتماعى يشبه الجسم ـ بنية وجودية ـ « واقعة أولية » ، « أنا موجود" اجتماعيا كما أنا موجود" بدنيا » • ومما لاشك فيه ان الجسم وحيد لا نضير له ـ والمجتمع مؤلف من فئات كثيرة متشابكة • فتعدد الفئات يعبر عن أنواع الوجود المختلفة • تلك الانواع التى يهمنا أمر وصفها وتحليلها • فالفرد مرتبط بالآخرين ارتباطا عاما • فعلى علم الاجتماع أن يكتشف الروابط الاساسية بين الافراد • فكل عمل أقوم به يتضمن اشارة الى الآخرين ، ومثلى يشبه مثل الذى يسبح فى بحر متلاطم من الاحكام التى يحملها الآخرون لى • فكل ما يحيط بالفرد من حضارة مادية أو معنوية يشير الى الآخرين ـ اضف الى ذلك كل المبادأات الوجدانية تفترض وجود صلات وروابط مع الآخرين • فابواب الوجدان مفتوحة للآخرين(٥٨) •

ينص المذهب « الفينولينولوجى الوجودى » على وجود هوة سحيقة بين الماهيات والوقائع ، وأن من يبدأ بحثه بالوقائع لن يدرك الماهيات أبدا • ان مبدأ « الفينومينولوجية » هو المضى الى الاشياء « ذاتها » وأساس منهجها هو حدس الماهية • ينبغى اذن على الاقل توسيع نطاقها وافساح المجال لتجربة الماهيات والقيم • بل يتعين الاعتراف بان الماهيات وحـــدها هى التى تتيح تصنيف الوقائع وفحصها • فما لم نرجع ضمناً الى ماهية الانفعال ، لاستحال

---

(٥٧) الواقعة فى « الفينومينولوجيا » هى « وجود فردى ممكن » ـ وتتجه الواقعة الى الماهية الضرورية لان التفكير الممكن يدخل فى ماهية هذه الواقعة امكان ان تكون على غير ما هى عليه •

(٥٨) Mikel Dufrenne, "Existentialisme" Et Sociologie", Cahiers "Internationaux" Vol. I, pp. 161-171.

علينا أن نميز الطائفة الخاصة بوقائع الانفعال ضمن الحشد الزاخر من الوقائع النفسية . »[٥٩]

ان « الوجـــودية » تقف موقف المعارض ضد النظرية والتطبيق الثوريين ، وضدّ نضال بعض الشعوب نحو الاشتراكية . وتقول بأسبقية « الوجودية » و « الجوهر » أو « الماهية »[٦٠] .

١٠ ـ خاتمة البحث :

يبحث علم اجتماع المعرفة فى الصلة بين الانتاج العقلى والفئة الاجتماعية الصادر عنها ذلك الانتاج العقلى ، أو بمعنى آخر دراسة مدى تأثير الوجود الاجتماعى فى الآراء والافكار . درس « كارل مانهايم » المفاهيم المختلفة التى تضمنتها المذاهب السياسية للتاريخ فى علاقاتها بالمراكز الاجتماعية التى كانت تشغلها الفئات الاجتماعية ـ التى كانت فى الواقع عبارة عن محرك لتلك المذاهب المختلفة .فتوصل الى القول بأن تلك المفاهيم المختلفة فى التاريخ كانت تؤلف قسما من المدن الخيالية ـ أو ـ الاحلام الذهبية أو الطوبى التى كانت تتطلع اليهـــا بعض الفئات الاجتماعية . ويحدد « مانهايم » الفئات الاجتماعية ـ بالطبقات الاجتماعية ، ولـكنه لا يلزم نفسه بالمفهوم الاشتراكى للطبقة ـ ويحذر « مانهايم » من المغالاة والمبالغة فى تأثير الوضعية الاجتماعية (الطبقة الاجتماعية) فى الانتاج الفكرى ، ويؤكد بأن البحوث التجريبية وحدها هى التى تقرر نوع الصلة بين العوامل الاجتماعية والفكر . ولا نعنى الصلة وجود علاقة ميكانيكية كالعلاقة بين السبب والنتيجة ـ ولـكنه يقول بأن الفكر مرتبط بالوضعية الاجتماعية ذات الحيوية والفاعلية ، فحين تتبدل الوضعية الاجتماعية تتبدل أنظمـــة التفكير معهـــا ـ فالافكار والآراء

---

(٥٩) نظرية فى الانفعالات ، سارتر ، ص ٢٣ .

(٦٠) جان بول سارتر ، المذهب المادى والثورة ، ترجمة ســـامى الدروبى وجمال الاتاسى ، دار اليقظة العربية ١٩٦٠ .

والطاقات النفسية تتصـــل ، وتنتقل ، وتتحول باتصال وتحول القـــوى الاجتماعية ، أى أن الصلة وشيجة بين أنظمة التفكير والتكوين الاجتماعى • وقد عرف « مانهايم » الصلة بين الآراء والافكار والوضعية الاجتماعية بأنها صلة « انسجام » أكثر من كونها صلة تقرير – أو – جبرية • وبدون شك فكلنا يعلم بأن المعرفة تتصل بالمجتمع وليس بالعكس • الا ان هذه الصلة أو هذا التأثير يختلف من حيث الشدة والضعف تبعا لاختلاف الظروف والاحوال • ولم يستثن « مانهايم » القول الى أن هذه الصلة أو العلاقة تصل الى درجة الجبرية المطلقة • وحاول « مانهايم » أن يعطى لـكلمة « صلة » معنى تجريبيا • فمن الضرورى معرفة الصلة بين الرأى والوضعية وشرحها •

اقترح « مانهايم » منهجا للبحث يتضمن ثلاث خطوات هى :

(١) الابتداء بالانتاج الفكرى المستقل لنبني نظاما كاملا تنسجم فيه العناصر المختلفة •

(٢) المقارنة بين ذلك الانتاج الفكرى والانواع الاخرى المعارضة •

(٣) وأخيرا تأتى خطوة « العزو » – أى ارجاع الآراء والافكار الى الاصول الاجتماعية (أو الجذور الاجتماعية) •

وبذلك ربط « مانهايم » بين وضعية الحياة والانتاج الفكرى ، وأعتبر منهج الاستقصاء التجريبى الطريق الوحيد لدراسة تلك العلاقة • وبما أن هذه العلاقة تتضمن عوامل بشرية ، فلا يمكن الاكتفاء بمعرفة مظاهرهـــا الخارجية ، كما لا يمكن الاعتماد على الدراسات الاحصائية فى فهم طبيعة تلك العلاقة • فللرأى وظيفة عملية الى جانب وظيفته النظرية •

يعتقد « مانهايم » بأن ظهور الافكار وبلورتها يتأثران الى حد بعيـد بالعوامل الاجتماعية • ولا يقتصـــر تأثير تلك العوامل على أشكال الفكر ونماذجه ، وانما محتواه ، ومضمونه ، وبنيته ، بالاضافة الى أنها تحدد مجال خبراتنا وملاحظاتنا • ومن المسلم به أن معرفتنا مرتبطة بأشياء منظورة بادية

للعيان ، فاننا حين نفكر ، فأننا نفكر من وجهة نظر مصالح الجماعة التى تنتمى اليها •

ويقول « مانهايم » بأن أشكال الفكر التى تبدو للعيان تشمل شيئا كثيرا من « الدعاية » فيصبح المظهر الذى يبدو للعيان لا يكشف عن الواقع أو عن الحقيقى • وقد عنى « مانهايم » بالواقع ـ الانسجام والتطابق ـ بعد ان نعمل على انتزاع العناصر المصلحية الخلقية فى كل جزء من أجزاء المعرفة • وعندما نتخلص من كل مصدر للخطأ ، نصل بعد ذلك الى حقائق ثابتة وموضوعية ، وغير قيمية • فالتطابق يتطلب الانتقال من المظاهر السطحية للمعرفة التى يسهل فصلها وعزلها ، الى صلب الرأى وبنيته ، وذلك بمعرفة الآراء المعارضة ـ وقد دعا هذه العملية Particularization (طريقة التجزئة والتخصيص) ـ فلاجل الاحاطة برأى من الآراء يجب أن أفهم الآراء المناقضة لذلك الرأى • وهكذا نجد أن « الفينومينولوجية » تؤلف مصدرا من المصادر التى أخذ عنها « مانهايم »[٦١] • ان علم الاجتماع كما قال « أوكست كونت » يهتمُّ بالبحث عن الحقائق بدلا من الفروض والمقولات الوهميّة الغامضة ، ويربط بين الحقائق الاجتماعية والنظام الاجتماعى القائم ، ويحرّر تلك الحقائق من المفاهيم الميتافيزيقية واللاهوتية • فهو علمٌ

---

(٦١)

Mannheim, Karl, Ideolgy And Utopia, Harcourt, Brace and Company, New York, 1936, pp. 36-236.

Mannheim, Karl, Man and Society in an Age of Reconstruction, New york, Harlourt, Brace and Company, 1940.

Mannheim, Karl, Diagnosis of Our Time, Oxford University Press, Newyork, 1944.

Maquet, Jacques J., The Sociology of Knowledge. Its Structure and Its Relation to the Philosophy of Knowledge, Boston, The Bacon Press, 1951, pp. 19-95.

Mandelbaum Maurice, The Problem if Historical Knowledge, Liveright Publishing Corp., New York, 1938.

موضوعى ، مصدر المعرفة فيه الملاحظة والخبرة ، يهدف الى معرفة القوانين الموضوعية التى تسيطر على تطور المجتمعات وحركتها • وبالاضافة الى ذلك فان لعلم الاجتماع هدفا تطبيقيا مثله فى ذلك كمثل السياسة والاقتصاد ـ فيستفيد من الحقائق والقوانين فى تنسيق المجتمع واعادة تنظيمه •